كتاب الهلال

أبى.. عزيز أباظه

عفاف عزيز أباظه

سلسلة
ثقافية
شهرية



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣١]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : منى جامع

عفاف عزيز أباظة

أبي عزيز أباظة

فاضل

دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

أبى عزيز أباظة

تفتحت عيناى، ورأيتنى أعيش فى بيت أبى مع عمى أحمد وعثمان، وشبت قلوبنا على حبهما؛ فقد كان أبى لهما أخا وأبا، وكانت أمى ابنة عم وأختا وكان البيت سعيدا هادئا. نشأنا فى هذا البيت، وسمعنا فيه أول ما سمعنا الشعر حتى قبل أن نسمع الكلام، كنت أرى أبى جالسا بين أخويه وأعمامه جمال الدين أباظة ومحمد أباظة، يقرأ عليهم بصوته الحنون.. مختاراته من الشعر القديم.. وكنا نهتز للشعر رغم أننا لم نكن نفهم منه ونحن فى هذه السن حرفا، وقد ألفت آذاننا الشعر الجاهلى، والشعر الإسلامى فلم نهبه عندما أوصلتنا إليه الأيام فى المدارس الثانوية .

ومازلت أراه وأسمعه يردد الأبيات الأثيرة عنده ومنها :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة لها بين جلدى والعظام دبيب
وما هو إلا أن أراك فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأعرض عن رأيى الذى كنت أرتأى
وأنسى الذى أعددت حين تغيب
ويظهر قلبى عذرها ويعينها
على، فما لى فى الفؤاد نصيب

أو يروى :

أســـتغفر الله إلا مـــــن محبتكم
فإنـــها حســـناتى حـــين القـــاه
فـإن زعمــت بـأن الحــب معصيــة
فـالحب أجمـل مـا يعصـى بــه الله

وللعم ابن عبد الله:

قفا ودعا نجـدا ومـن حـل بـالحمى
وقـــل لنجـــد عندنـــا أن يودعـــا
بنفسـى تلـك الأرض مـا أطيـب الربا
ومـــا أحســـن المصطـــاف والمتربعـــا
بكت عينى اليسرى فلمـا زجرتـها
عـن الجـهل بعـد الحلـم أسـبلتا معـا
واذكــر أيــام الحمـــى ثـــم انثنى
علـى كبـدى مـن خشـية أن تصدعـا
وليسـت عشيات الحمـــى برواجع
إليـك ولكـــن .. خــل عينيــك تدمعــا

ولعمر بن ربيعة:

ومظهـــــرة لخلـــــق اللــــه ودا
وتلقـــــى بالتحيـــة والســـــلام
أتيت فؤادهــــــا أشـــكو إليـــه
فلم أخلـــص إليـــه من الزحـــام

فيـــا مـــن ليـــــس يكفيـــــه محب
ولا ألفـــا محـــــب كـــــل عــــام

ولعروة بن أذينة:

إن التـــي زعمـــت فـــؤادك ملـــها
خلقت هـــواك كما خلقت هوى لهـــا
بيضـاء باكرهـــا النعيـــم فصاغـــها
بلباقـــــة فأدقـــــها وأحلـــــها
فـإذا وجـــدت لهـــا وســاوس ســلوة
شـــفع الضمـــير إلى الفـــؤاد فســـلها
منعـــت تحيتـــها فقلـــت لصـــاحبى
مـــا كـــان أكثرهـــا لنـــا وأقلـــها
فدنـــا وقـــال لعلـــها معـــذورة
مـن بعـض رقبتـــها. فقلـــت لعلـــها

وللشاعر الأحوص:

أزور بيوتـــا لاصــــقات ببيتهـــا
ونفـــسى فى الـدار التى لا أزورهـــا

ولـــه :

أدور ولـــــولا أن أرى أم جعفـــــر
بأبياتـــكم مـــــا درت حـــيث أدور

وللبحترى :

الله جـــارك فـــى انطلاقـــك
تلقـــاء شـــامك أو عراقـــك
لا تعذلنـــى فـــى مســـيرك
يـــوم ســـرت ولم ألاقـــك
إنـــى خشـــيت مواقفـــا
للبـــين تســـفح غـــرب مـــآقك
وحـــذرت مـــا يجـــد المـــودع
عنـــد ضمـــك واعتنـــاقك
فتركـــت ذلـــك عامـــدا
وخـــرجت أهـــرب من فراقـــك

كـان أبـى يـردد شـعر شـوقى ويطلـب منـا أن نـردده وراءه، وأن نحفظه.. فقد كان شديد الإعجاب بشوقى شديد التعصب لـه. وكـان أخى فى سن السادسة يحفظ الكثير مـن مجنـون ليلـى، ويمثـل دور المجنون أمام زينب صدقى التى اشتهرت بدور ليلى فى ذلك الحـين وكانت تجاربه ضاحكة.

كان يجمعه بوهيب دوس المحامى الذائـع الصيـت حينئـذ حـب وصداقة وقوى أواصرها إعجابـهما العميـق بشـوقى. فلقـد تمـرن أبـى بعـد أن حصـل علـى ليسـانس الحقـوق فـى مكتـب وهيـب دوس..

ولم يشتغل أبى بالمحاماة وإنما نمت صداقة قوية بينه وبين أستاذه. وأذكر أن أبى كان يكلمه بلهجة كلها إجلال وتوقير حتى بعد أن علت سنه ولم يعد ذلك الشاب اليافع.

كانت تجمعنا «الربعماية» فى الصيف بأعمامى وأقاربى محمد وهيام ورأفت وماهر وهو أصغر أعمامى ومنى سناً. وهو دمث الخلق عفيف النفس وكان هو المتفوق الوحيد بيننا، وهو الآن وكيل لوزارة الكهرباء. وكنا نقضى يومنا فى الاستماع إلى الفنوغراف وفى تأليف المسرحيات. أما الحوار فكنا نؤلفه أثناء التمثيل، وكانت والدتى تأتى بمقرئ يشبه صوته إلى حد كبير صوت الشيخ محمد رفعت يسمى الشيخ السيد الجمل، وكان يقرأ السور الصغيرة بصوت دافئ ومازلت إلى الآن أشعر بحنين لطفولتى كلما سمعت هذه السور، وفى المساء يغنى الحاج عبده، وهو مغن يأتى به أبى ليقضى معنا أجازة الصيف.. كنا نجتمع بعد العشاء كبارا وصغارا لنستمع إلى الأدوار القديمة والقصائد التى كان يطلبها أبى وأذكر منها «وحقك أنت المنى والطلب» و «آنست يا نور العيون» وكنا نقاوم النوم حتى لا يرسلنا أهلنا إلى حجراتنا، وكان أبى يشجعه ويستعيده.. فكان الحاج عبده يترك الغناء وينتفض واقفا ويحيى بيديه حينا وبعوده أحيانا ثم يستأنف الغناء وكأنه لم ينقطع عنه قط، ويعود أبى إلى مداعبته.. ويعود هو إلى الحركات المتتابعة التلقائية.

كنا فى الصيف نستأجر بالإسكندرية بيتاً جميلا فى جليم، وكانت تزورنا فيه مغنية تعدت سن الشباب تسمى فاطمة العراقية وأذكر أننا كنا نخرج من البيت مساء ونمشى على الكورنيش والبحر يضرب الرصيف بأمواجه، وتغنى فاطمة العراقية، بصوت ظل جميلا - الأغانى القديمة إلى أن نصل إلى ستانلى لنزور عمى عبد الله فكرى أباظة بهذا الموكب.. والغريب أننى أذكر أن المارة كانوا قلة، وأذكر أن أحداً لم يتعجب من هذا المنظر.

ونعود بعد السهرة سيرا على الأقدام، ولكن أبى كان يحمل المتعب منا إذا غلبنا النوم أو أتعبنا المشى.

وكثيرا ما كنت أسمع أبى يلحن الابيات التى تعجبه على جميع النغمات يرددها لنفسه وخصوصا هذا البيت الذى لا يفارق ذهنى:

أمـا والـذى أبكى وأضحـك، والذى
أمـات وأحيا، والذى أمـره الأمـر

وكبرنا وهذه الكلمات الجميلة ترن فى آذاننا والموسيقى والغناء تملأ حياتنا، وعرفنا أم كلثوم وكان لها مكانة خاصة فى بيتنا «فقد جمعت بينها وبين أبوى صداقة وحب.. ودعاها أبى فى كل مديرية عمل بها.. واستقبلها فى كل مرة استقبالاً حافلاً.. وكانت تعود من حفلها إلى بيتنا.. وتسهر معهم ولا أقول معنا حتى الصباح تغنى آخر أغنياتها الجديدة.. وقبل نزولنا إلى المدارس فى الصباح كنا نسمع من أهل المنزل أخبار السهرة ونلعن النوم الذى حرمنا من غناء أم كلثوم.

وكلما نظرت الآن ورائى إلى البيت الذى كانت فيه أمى.. أراه كالحلم الجميل كله شعر وحب ووفاق.

فقد كانت أمى حب وطفولة أبى وأمل شبابه، وتمكن هذا الحب منهما حتى أحسسناه نحن، وكنا أطفالا لم نزل، وشعرنا به يملأ بيتنا وحياتنا.

سافر أبى سنة ١٩٣٧ إلى أوربا واصطحب معه أمى وبقينا نحن فى الربعماية، سافرا للعلاج ولحضور المعرض فى باريس، ونشرت إحدى المجلات صورتهما مع إسماعيل باشا صدقى وهما عائدان على لمركب «اوزونيا» وكان أبى يحبه ويقدره.. وأذكر أن القيامة قامت وقتذاك فى أسرتنا، فقد ثار جدى لأمى وهو عم والدى لنشر صورة ابنته فى المجلات وقاطعهما. وأذكر أن أعمامهما بذلوا جهداً كبيراً حتى صفح جدى عن هذا الإثم العظيم، وذهبت أمى إلى أبيها تقبل يده ومعها أبى معتذراً خاشعاً.

وحين عين أبى مديرا للمنيا ذهبنا معه وانتظمنا فى المدارس هناك وأذكر أن أختى أشارت علىّ مرة أن نقول لمدرسة الحساب التى تأتى إلى البيت إن أبى يطلب منها أن تعفينا من الدرس فى ذلك اليوم وأن نقول لأبينا إن المدرسة قد أصابتها وعكة ولن تحضر، ونغتنم الفرصة ونستأذن فى الذهاب إلى السينما، وقد كان. وبعد أيام ظهرت الكذبة، ولست أدرى كيف؟ فهى كذبة صغيرة كان يمكن أن

تمر ولكنها لم تمر.. وغضب أبى وثار ومنعنا من الظهور أمامه أسبوعا كاملاً، ولم يكتف بذلك وإنما طلب من ناظرة المدرسة أن تخبر زميلاتنا بما حدث فنفذت الناظرة الطلب بدقة.

وفى طابور الصباح وأمام الجميع روت قصة التلميذتين الكاذبتين كما أسمتنا، ولن أنسى ما شعرت به من خجل وهوان ولست أدرى علام كان كل هذا الغضب، فأولادنا اليوم يتعجبون إذا نحن احتججنا على هروبهم من الدرس أو من المدرسة نفسها، وهم والحق يقال لا يكذبون ولكن ليس تمسكا بالفضيلة وإنما لأنهم لا يحتاجون للكذب فهم لا يخافون شيئا ولا يهابون أحدا. وإنى أفضل الكذب مع الاحترام على الصراحة مع الاستخفاف.. واللامبالاة.

كنا نقطع المسافة بين المنيا والقاهرة فى حوالى سبع ساعات فى السيارة، فكنا نتغلب على الملل بالمطارحة الشعرية، وكنا نتبارى فى حفظ الشعر حتى يمكننا أن نضيق الخناق على منافسنا. وأذكر أنه بعد سنوات من ذلك تقدم لأختى خطيب ووافقت عليه فقبله أبى ووعد وأعطى كلمته، ثم عادت أختى ورفضت الخطبة فأحرجت والدى، فتردد وانتابته الحيرة وبدأنا أمامه مطارحة.. وتعمدنا أن نقول من شعره فى قيس ولبنى.

مرنى أطعك فما عصيتك مرة

أبتاه لكن ما طلبت عظيم

والواقع أنه لم يطلب شيئا وإنما نحن الذين طالبناه أن يرجع عن كلمته وأن يتراجع عن وعده.. ولا نكتفي بذلك بل نلومه أيضا.

وكان يحلو لأبى فى المناسبات العائلية أن يطلب منى أن أقف فوق المائدة وأن أخطب باللغة العربية، والآن يقول لى إخوتى إننى كنت في غاية ثقل الظل.. غير أن أبوى كانا سعيدين بى، وإن كنت أشك فى ذلك، فلابد أنهما كانا يريان أيضاً رأى إخوتى، ولكن لا يظهران، فالأطفال فى سن الثامنة يكونون فى قمة السخافة وثقل الظل.

وكنا نحتفل بعيد زواج أبوى احتفالاً عائليا، فإذا كنا فى الربعماية دعونا الأقارب وقضينا اليوم فى الدهبية فى بحر مويس كما يسمونه هناك، ويجامل أبى المدعوين جميعا ويشعر كل واحد منهم بأنه الضيف الوحيد، ويوزع عليهم الهدايا البسيطة ليشركهم معنا فى أعيادنا وإذا كنا فى المنيا وزع علينا نحن الهدايا وقضيناه معا سعداء فرحين.

ومن العجيب أن يكون أهل بيته جميعاً من غواة الشعر والأدب حتى جمال المشرف على شئون المنزل.. فقد اصطحبه أبى إلى المنيا وهو بن عامل التليفون فى الربعماية وكانت إدارة البيت وظيفة ثانوية بالنسبة له. أما الوظيفة الأساسية فكانت حفظ الشعر وكان

يتكلم بالشعر ويعاتب بالشعر، ويعاكس بالشعر. أذكر أن ابنة خالتي كانت مخطوبة ويبدو أنها ضايقته في شيء يختص بعمله، فكان كلما رآها تصلي قال لها مداعبا:

صلَّى وصام لأمر كان يطلبه

فلما انقضى الأمر لا صلَّى ولا صاما

وكان من المناظر الغريبة أن نرى جمالاً. المسئول عن نظافة المنزل. يزاول عمله وفي يده الشوقيات ولا أنس ذلك اليوم، كنا لانزال في المنيا، وكنا نجلس مع أبي قبيل الغروب وإذا بصديق له يطلبه تليفونيا، ويرجوه في اضطراب بأن يذهب إليه فورا، فيذهب أبي مسرعا ثم يتكلم بعد ساعات قائلاً: إنه سيقضي الليلة مع صديقه هذا، وكان هذا الصديق قد طعن في كرامته من أهل بيته، وفوجئ بحياته تتصدع ووجد نفسه وحيداً مع أولاده، لا يعرف ماذا يصنع بهم؟، ولا ماذا يصنع بكبريائه؟، فكبر عليه الأمر، واضطربت نفسه. وانهار الرجل، ولم يبق أبي معه ليلة واحدة كما كان مقدرا، وإنما ظل ساهراً إلى جانبه عدة ليال، يحاول أن يشد من أزره، وأن يعيد إليه زمام أمره.

وفي المنيا أيضاً بدأ أبي رواية «قيس ولبنى» ولكنه بدأها تحت إلحاح ابن خالتي وكان تلميذا في المدرسة السعيدية، وهو الآن

رئيس سلاح الإشارة بالإسكندرية العميد شريف أباظة، يحب الشعر وكله رقة، وكانت تسانده فى الإلحاح أخته تغريد وهى قارئة ممتازة وملمة بكل دقائق شئون المنزل وكان أبى يقول عنها «وما الذى لا تعرفه تغريد» وكما كان لها شأن فى تأليف «قيس ولبنى» كان لها الشأن فى ظهور هذا الكتاب.

وكانت أمى قد احتضنتهم بعد وفاة شقيقتها، ووجدوا فى أبى أبا وصديقا، وكنا كلما اجتمعنا بعد الغذاء زاد الإلحاح من أبناء خالتى وكان جوابه دائما: «لنبدأ غدا» وتوالت الأيامٍ ولا يأس من هنا ولا شعر من هناك حتى قالا له فى آخر محاولة لهما: إن شوقى قد كلفك بكتابة «قيس ولبنى» فابدأ وإن أردت بعد ذلك ألا تكملها فلك ما تشاء، فقال ضاحكا: هات قلما وورقة واكتب يا شريف.. وكانت بداية «قيس ولبنى».

أديرى علينا شهىّ السير
وقولى فقولك راح السمر
فديتك لبنى فهل عن هوى
حديث وهل عن محب خبر
لبنى : وماشأنكم بهوى العاشقين
كفاهم عذابهمو المستعر

دعوهـــم لنــار تقــد الحــديد
ولا عــج شــوق يذيب الحجــر
يقومــون يومــهمو نزعــا
ويجمعــهم ليلــهم بالســهر
رثيت لهــم في شــقاواتهم
كأن حملــوا سـيئات البشــر

ثم لا يمضى شهر إلا وقد تم جزء كبير من قيس ولبنى وهكذا بدأها مجاملا ثم لم يجد نفسه إلا وقد أتى بالحسين خاطبا وشفيعا لقيس لدى الحباب والد لبنى فيقبل الزواج ثم تجرى الأحداث إلى أن يدب الخلاف بينها وبين أهل زوجها ويتهمونها بالعقم ولا يحتمل قيس الصراع القائم فى بيته فيمرض، ثم يخضع لرأى أبيه وأمه ويطلق لبنى، ويضرب قيس فى الصحراء هائما على وجهه، فيقابل مجنون ليلى ويشكو له همومه وآلامه.. ويهيب به أن يعيد إليه لبنى وكانت قد تزوجت.. فيحاول.. وينجح.. وكانت مسرحية قيس ولبنى هى أول مسرحية لأبى وهى عبارة عن مشاعر حلوة، وحب حان، ومشاكل تنساب برشاقة إلى حلولها، وكذلك كانت حياته فى ذلك الوقت، وجمل الشعر حياتنا منذ طفولتنا الأولى وأضفى عليها نوعاً من الرومانسية الحالمة.

ومن المنيا نقل أبى محافظا لبورسعيد سنة ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية.. وكانت بورسعيد تضرب يوميا بالقنابل.. وتعرض

مبنى المحافظة حيث كنا نقيم - لقنبلة غير أنها لم تنفجر، ولم يشأ أبى أن تهاجر أسرته إلى الربعماية.. وإنما سمعته يقول: كيف أبعد أسرتى والزوجات والأطفال أمام عينى يملئون مدينة بورسعيد.. إن ما يجرى على أهل المدينة سوف يجرى علينا، وبقينا معه، واكتفينا بأن نقضى الليل فى المخبأ.. وكنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية وكانت لاتبعد عن بيتنا إلا بمسافة كيلومتر واحد كنت أقطعه عند الضرورة سيراً على الأقدام فى ساعة أو أكثر، فقد كنت مع زميلاتى نتكلم ونضحك طوال الطريق ويمر الوقت دون أن نشعر، وكأنما لم نكن معا منذ الساعة السابعة صباحاً وعندما أصل إلى باب البيت يكون قد فات على ميعاد رجوعى أكثر من ساعتين فكانت أمى تغلق على. ولما تكرر الأمر وضاقت بى طلبت من أبى أن يرسل إلىّ ساعيا ليعود بى إلى البيت مباشرة، وكنت فى الثانية عشرة من عمرى وجاء الساعى إلى المدرسة فى الساعة الثانية ظهرا وكان رجلاً مسنا سمينا وقورا.. وكان طربوشه يخفى الشعر الأبيض الذى يحدد رأسه وأصر الرجل أن يحمل عنى الحقيبة، وكانت كبيرة جدا لا أدرى لماذا وحاولت بكل قواى أن أثنيه فلم أفلح، لم أشأ أن يحملها عنى وهو فى سن جدى ولكنه تمسك باستماتة، وقبل أن أغادر المدرسة علمت من زميلاتى أنه جد واحدة من صديقاتى.. وسقط قلبى ولم أدر ماذا أفعل؟.. وفى اليوم التالى فكرت وقلت بنفسى «إننى سأنتظر حتى تنصرف جميع التلميذات من المدرسة حتى لاتراه حفيدته وهو يحمل

لى الحقيبه.. وفعلا هذا ما حدث ولكن قبل أن أغادر المدرسة جاء من يخبرنى بأن حفيدته تبكى لأننى تركته ينتظرنى كثيراً أمام الباب. فحرت فى أمرى ووجدت أن هذه المشكلة تفوق احتمالى وعجزت تماماً عن إيجاد الحل الملائم.. ذهبت إلى أبى بخوف وتردد وخجل وقصصت عليه القصة ورجوته أن يقنع الساعى ألا يحمل الحقيبة.. فأجاب أبى بحده بل لا يذهب على الإطلاق «لماذا لم تقولى لى من أول يوم؟ لماذا تركته يحمل الحقيبة؟ لماذا تركته ينتظرك؟ لقد آلمت صديقتك وسببت له الحرج» فأجبته إننى خفت أن أشكو من أول عليك أن تعودى فى مواعيدك حتى لا تقلقى أمك ولا تتسببى يوم فى إيلام الناس. رحم أبى صديقتى ورحم مشاعرها ورحم الجد الذى أصر على أداء ما تصور أنه واجبه، وحلت المشكلة برفق وبإنسانية.

وفى بورسعيد امتحنت أمى بموت شقيقها المهندس عبدالعزيز أباظة وهو فى شرخ الشباب وكانت قد فقدت قبله شقيقين وشقيقة، فلم تحتمل هذه النكبات المتتابعة، وزحف إليها المرض، وثقل على قلبها السقم. وبدأنا منذ ذلك اليوم نعيش مع الخوف، ونحيا مع القلق، وظلت شهوراً أربعة هى التى عاشتها بعد أخيها.. تقاوم المرض والمرض يقاومها وتدافع الهموم والهموم تدافعها، يخرج طبيب ليأتى طبيب، ثم نقلت إلى مستشفى القلب بالإسماعيلية، وكان مديره الدكتور جوديل الطبيب الفرنسى المشهور فى ذلك الوقت وكنت أرى أبى شاردا حزينا.. يخفى هلعه بين ضلوعه، وكنت كلما

خلوت إلى أمى أسندت رأسى إلى كتفها وبكيت دون أن أعرف سببا لبكائى، إلى أن رآنى أبى مرة، وعنفنى على ذلك، فعجبت لتعنيفه، ولكننى قدرت مشاعره، بل ورثيت له، ولكن بعد ذلك بسنوات. وحينما كانت تفاجئ أمى النوبة القلبية.. كان أبى يسارع إليها.. ويسند ظهرها على صدره ويعكس وجهه ماتلاقيه هى من آلام وأوجاع، إلى أن انتزعها الموت يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٤٢ وهى بين يديه، فاندك البيت علينا ولما أفقنا، وجدنا أبا ملتاعا، ووجد هو أبناء ذاهلين.. ووصف هذا اليوم فى ديوانه.

دفعت صدرها إلى وألقت
رأسها عند راعد ذى خفوق
ثم قالت فى أنة تتهاوى
أزفت ساعة الفراق السحيق
لا ترع واحمل الفجيعة جلدا
لست للضعف عندها بخليق
وأشارت لطفلة تشهد الهول
بقلب دام وجفن غريق
قالت ارع الاولاد وابق كما كنت
مثال الأب المحب الرفيق
ومضت تنزع الحياة وتلقى
فى زفير آصارها وشهيق

في ســني لامــح وعــرف ذكــي
وابتســـام عــذب ووجــه طليق
لـو تراهــا تقــول قــد مســها البــهر
فمـــالت إلى ســـبات رقيـــق
ووقفنــا مروعــين نجيــل الطــرف
بـــين التكذيـــب والتصديـــق
ثــم عدنـــا للحـــق عـــانين صرعى
مــن مفيــق يــهذى وغـــير مفيــق

ومنذ ذلك اليوم بدأ كل منا يبحث عن طريقه ويتخبط في الدنيا دون هداية الأم وحنانها، ولهفتها.

واندلعت النار من قلب أبي آهة مدوية هي «أنات حائرة» وكان إهداؤه «إليها في أكرم جوار» ومن الأبيات التي هزتني دائما هذه الأبيات التي يصف فيها أول زيارة إلى قبرها، وكنا نذهب معه إلى هناك، فينتحي جانبا ويتحدث إليها في همس، ولم يفارق هذا المنظر مخيلتي. وكنت دائما أتساءل عما يقوله ولا أجد جوابا إلى أن قرأت هذه الأبيات:

الزيارة الأولى:

دعـاني لهـا الشوق الدخيــل وهزني
إلى المضجـع الاســني حنــين مكتــم

أفضت لها حتى إذا جئت شفنى
لهيب أواب يهم ويحجم
فلا أنا أستطيع القفول فأنثنى
ولا أنا أستطيع المثول فأقدم
ولما كففت الدمع إلا أقله
ونهنهت فى جنبى نارا تضّرم
دخلت عليها فى وضوئى وروعتى
كما يدخل البيت المحرم محرم
وقفت يقص الدهر تاريخ غابر
من العمر والعمر ابتسام وأنعم
تمثلتها منضورة الحسن طفلة
يضئ الدجى منها جبين ومبسم
وطاوية عهد الدراسة كاعبا
تروعك فيها تضرة وتوسم
ومجلوة للعرس وضاءة السنى
تأود فى وشى الشباب وتنعم
وجامعة فى بيتها شمل بيتها
توسطهم كالبدر حفته أنجم
فمحمولة منه إلى ساح مفضل
يقبل ويعفو عن كثير ويرحم

وقفت أناديها وأهتف باسمها
وألحف حتى أوشكت تتكلم
وقلت لها يا زين ما من فجيعة
تعاظمنى إلا وفقدك أعظم
فأنت لعينى مذ تراءتك قرة
وأنت لنفسى مذ تمتلك توأم
وحبب فيك النفس عليا خلائق
إذا لم تحببها الوشائج والدم
سأكرم أكبادا تركت فإن أمت
فإن إله الناس بالناس أكرم
عليك سلام الله يا أم واثق
ووالاك من جدواه هتان يثجم
سيبكيك لايقنى دموعا ولادما
مدى العمر مقروح الجوانح أيم

وحمل أبى أحزانه بين ضلوعه، وذهب بهم إلى أسيوط مديرا لها، وبقى هناك ثلاثة أعوام أحب خلالها أهل أسيوط وأحبوه، فقد كان أبى قريباً إلى القلوب. الكلمة الحلوة تسبق إلى لسانه دون أن يبحث عنها. والابتسامة المرحبة المطمئنة تبدو على شفتيه دون أن يقتعلها. كان يحب الناس كما هم يحبونه ويقدر أن للبشر حدودا لا يطالبهم بالتفوق عليها.. وهذا فى نظرى هو سر حب الناس له وقد كان

مهيب الطلعة فارع الطول أنيق الملبس والحركـة علـى وجهـه جمـال وجلال من الملفت للنظر أن جيل أبى كله أو معظمه تجمعهم صفـات متشابهة، فكلهم قرأ الأدب العربى وأحبه والغربى واستوعبه. كلـهم قرأ القرآن وارتكز عليه ليحمل لغته كلهم قرأ التراث وبنهم وشـغف. سمعتهم يتناقشون، وسمعت حـوارا ممتعـا أخـاذا يسـتعرض التـاريخ والأدب والشعر والفن والسياسة.. وراعنى منهم تنوع الثقافـة وجمـال العرض صقلتهم التربية القديمة فهم متواضعون فى كبرياء. بسطاء فى عز شبوا على تحمل المسئولية والترحيب بـها.. إنـه جيـل شـرف مصر كلها فى جميع المجالات.

كانت حياته فى أسيوط رتيبـة يذهـب إلى مكتبـه فـى الصبـاح – وإلى نادى البلدية بعد الظهر، ويعـود إلى بيتـه فـى السـاعة التاسـعة فيجدنا: أختى وأخى وأنا فى انتظـاره ولكـن كالتمـاثيل، فقـد كـان الأدب وقتذاك يقتضى ألا نبادئ الكبار بالحديث وأن نرد علـى قـدر السؤال إذا سئلنا، وكنا فوق ذلك كله نهابه. ومهما يحـاول أن يفتـح أبواب الحديث كنا نغلقـها بكـل أمانـة، ونعـود إلى الصمـت المطبـق لنحيل حياته إلى ملل وبيته إلى صحراء.

أذكر أننا عدنا مرة من السينما فسألنا أبى من باب المسامرة.

– رحتو السينما

– نعم

فقال لأختى

- عجبكم الفيلم ؟

- إيوه

- الفيلم عبارة عن إيه.. حكايته إيه ؟

- واحد بيحب واحدة

- فسكت يأسا واستسلاما

وكانت أختى تتبع نظاما قاسياً فى الغداء لتخفيض وزنها، فإذا طلب منها برفق ألا تقسو على نفسها ولا على صحتها. غضبت وحبست نفسها فى غرفتها يومين أو أكثر، واعتبرت هذا تدخلا فى شئونها الخاصة، فإذا ما سأل عنها وعلم باحتجابها. لم يعلق وإنما يترك الأمر يمر ببساطة.. ومما يلفت النظر عند أبى أن وجهه كان يعكس كل ما يدور بنفسه وكانت والدتى تحس به وتقرأ بنظرها دخيلة نفسه، وتفهم إذا كان يشكو من ضيق أو غضب أو ملل وتسارع وتقترح هى ما يريده هو. دون أن ينطق ببنت شفه، واعتاد على ذلك وظل على هذه الحال إلى أن أوقعته الأيام فى أيدينا، فى أيدى ثلاث كوارث فى أيدى ثلاثة أولاد يرونه والهم يعصف به والسأم يملأ نفسه وكل منهم فى حاله، تشغله المدرسة والمصروف والقلم والأستيكة..

وقد ظل أبى مرتديا البدل السوداء عامين كاملين بعد وفاة والدتى، ثم جاء يوما يخبرنا بكل رقة أن أصدقاءه فى أسيوط، واذكر

منهم وهيب دوس وحبيب دوس وكمال نخلة.. رجوه أن يخلع السواد فإذا بنا ينظر كل منا إلى الآخر فى امتعاض، وإذا بنا بعد أن نخلو إلى أنفسنا نتهمه بأنه هو الذى يريد ذلك، وكأنه جرم لا يغتفرنتفق على أن نكشر إظهاراً منا للاحتجاج، وإنى كلما تذكرت تلك القسوة منّا لا أغفر لنفسى ولا لإخوتى هذه التصرفات الصبيانية التى تحمل فى ثناياها الأنانية والوحشية.. فقد كنا سعداء بأحزانه هانئين بآلامه، ولكن لا ننسى نحن أن نذهب إلى السينما كل أسبوع. ولا أن نختار الألوان الزاهية لملابسنا - والويل كل الويل لأبينا إذا هو حاول أن يخفف مما به. وقد نوه عن ذلك حين قال:

لما خلعت سوادى فيك عاتبنى
بمطرق من كسيف اللحظ أكبادى
أنا الذى تتراقى النار فى كبدى
أما أحس أوار النار أكبادى
من أجلكم وصباكم فى بشاشته
نهنهت ارسال دمعى الظاهر البادى
حطمتمو بالصبا اصفاد رزئكمو
وظلت أحمل اغلالى واصفادى

وإنى الآن أتمنى لو أنه أمسك بنا نحن الثلاثة وأوسعنا ضربا وشفى فينا غليلى الذى يعذبنى إلى اليوم.

وظللنا سنوات إذا اجتمعنا على المائدة فمكان أمي موجود لا يشغله أحد ولو زاد عددنا أو احتجنا إلى المكان.

كانت أختي تكبرني بعامين. كانت في السابعة عشرة من عمرها، على وشك الزواج من ابن عمتها أكمل أباظة.. وهو الآن من المزارعين الناجحين في الشرقية ويحب الشعر، ومع مرور الزمن أصبح ذراع أبى الأيمن يباشر الزراعة التي لم يكن أبى يعرف عنها الكثير، وزادت الألفة بينهما واعتبره أبى ابنه الأكبر كانت اختي بسبب هذه الخطبة تسمح لنفسها بالتزين، وكنت أرى ألاّ حق لها في هذا إلا بعد الزواج فذهبت إلى والدى والغيظ يدفعني وقلت له «أختي تتزين وتكثر من الزينة» وطلبت أقسى العقوبة على ذلك - ولكنني روعت عندما نظر إلىّ نظرة كلها لوم وتأنيب وقال لى «وانت مالك» فخرجت مسرعة أبدى حنقي وأخفى خجلى واصطدمت بأختي وهى تكمل زينتها باسمة ولكنه عاتبها على الغذاء كما قالت لى أختي بعد ذلك وتدور الأيام وأذهب إليه بعد عشرين عاما لأشكو له ابنتي ومن نفس السبب.. ويكون رده مشابها لرده القديم، ويطلب مني أن أتخلى عن أفكار القرن الماضي قد كان دائما يتهمني بالتأخر - وله القدرة على تفهم مشاكل الشباب ويفوقني كثيراً في الوصول إلى عقلية أولادى.. ويسخر مني كلما تصديت للأمر الواقع ويناقش ابنتي فى الحب والزواج، وتتكلم هى معه ببساطة وحرية وتعرض

أراءها بإسهاب وتصف له وهى فى الخامسة عشرة من عمرها كيف تريد زوج المستقبل فى الوقت الذى لا أجرؤ فيه أنا على إبداء رأيى أمامه لا فى الحب ولا فى الزواج، بل أننى لا أستطيع أن أكلم زوجى فى وجوده بالحرية التى تتكلم بها هى عن زوج المستقبل.

كانت خالات أبى وهن كريمات إسماعيل باشا أباظة دائمات السؤال عنه وهو فى أسيوط.. وكانت تجمعه بهن صداقة قوية وحب متبادل وتفاهم كبير.. كان يجد عندهن راحة نفسية فقد أحببن والدتى! وقدرن أحزانه وآلامه، بل وشاركنه فيها، وكنا نتوجه إليهن كلما أردنا شيئا كماليا من أبينا، فتتحول الطلبات إلى أوامر تصدر إليه فيدفع بعد دفاع صورى عن النفس، وكانت أكثرهن إلحاحا عليه هى حرم الدكتور حسين أباظة، وقد ظلت توالينا إلى أن تزوجنا جميعاً، وكنت أشكوه إليها إذا فضل أختى عنى فى شىء. وأغتنم فرصة وجوده فى القاهرة وأكلمها من أسيوط لأطلب ما أريد، وإذا بأبى يعود ومعه ما طلبت وأكثر، وكان من باب الانتقام يقول: «ايش تعمل الماشطة فى الوش العكر» وقد ظلت صلته بخالته هذه تقوى مع الزمن وكان لها فى حياته مكانة لا تمس.

•

تزوجت أختى ونحن فى أسيوط وحاول أبى أن يكون أبا وأما.. وأذكره وهو معنا فى المحلات لاتكاد أختى تشير إلى شىء حتى يشتريه، وكنا جميعا لا ندرى من أين نبدأ ففكر فى أن يلجأ لابنة

خاله «عبد الحميد بث أباظـه» وهـى زوجـة عمـه محمـد فـى نفـس الوقت وكلفها بأن تقوم بشراء ما تحتاجه العروس، ولهذه السيدة في حياتنا شأن كبير فـإن ننـس لـن ننسـى وقوفـها مـع أبـى يـوم وفـاة والدتـى، ثـم لجوءنـا إلى بيتـها كلمـا ضـاقت بنـا الدنيـا وترحيبـها واهتمامها بأمرنا ونحن في المدارس الداخليـة.. فقـد كنـا نخـرج مـن المدرسة إلى بيتها أيام الآحاد.. وكانت تذهب بنا مع ابنتها هيـام إلى السـينما والمسـارح والحدائـق العامـة وكـان اليـوم يمـر كلمـح البصـر ولا نشعر إلا ويوم الاثنين قد حل فنذهب إلى المدرسة ساخطين.

واحتفل والدى بزفاف أختى احتفالا كبيرا.. جمع فيه أصدقاءه.. وأذكر أننا كنا نتفرج على الضيوف من شـرفة المنـزل، وكـان كـبراء مصر سنة ١٩٤٥ يملئون حديقة الربعماية علـى موائـد الغـداء وكنـت أرى أبى جميلا بين مدعويه.. وخيل إلى أنه ليس فى مصر كلها مـن هو أجمل ولا أكثر هيبة من أبـى وأعمـامى مـن حولـه.. وكـان عمـى «بابا عثمان» كما كنا نناديه شـديد التعلـق بوالـدى، شـديد الحـب لوالدتى؛ فقد كانت له بمثابة الأم فازداد عطفـه علينـا بعـد رحيلـها وتغلغـل فـى أمورنـا بقلـب كلـه حنـان وحـب.. رعانـا فـى طفولتنـا وتعـهدنا فـى شـبابنا، وأحبنـا بمـلء نفسـه، ولم نكـن نسـتطيع أن نجازيه على حبه إلا حبا وعلى عطفه إلا تعلقا، وكان لا يحيـد عـن الحق ولو سلطت عليه السيوف، وكنا على حبنا الشـديد لـه نخشـاه ونخافـه، ونعجـب بـه فـى نفـس الوقـت. رآنـا يـوم زفـاف أختـى

كالتائهين فى الصحراء فأخذنى وأخوتى بين ذراعيه وتلاقت قلوبنا. وتلاقت أدمعنا. عدنا بعد الفرح أخى وأنا إلى أسيوط، وقد كانت مشاجراتنا اليومية تقطع الملل الذى يعيش فيه أبى.. فقد كان أخى لا يحب أن يضيع وقت فى الدراسة على الرغم من ذكائه، وكان يرجونى فى امتحانات الفترة أن أخفى شهادتى حتى لا يسأل أبى عن شهاداته، وكنت أستنزف أمواله ومجاملاته حتى أخفى شهادتى أسبوعًا أو أكثر، ثم أذهب إلى أبى ليوقع عليها.. وبقى أخى يستعمل أسلوب التسويف هذا إلى الآن.

وكان لأخى صديق اسمه سمير ويصا، وهو ابن ألفى بك ويصا من أعيان أسيوط، واتفقا على الهروب من المدرسة وأخذا سيارة وذهبا بها إلى ديروط.. وبعد دقائق علم المأمور بوجود ابن المدير فاتصل بأبى فى مكتبه فقال له «ارسله ومعه عسكرى» وجاء أخى وزميله مرتعدين ودخلا المدرسة بعد استئذان الناظر. وكان سيد بك روحه، وهو من الشخصيات التى لا تنسى بين رجال التعليم فى ذلك الوقت. وما أن انتظم أخى فى فصله حتى فوجئ بأبى أمامه. ولا ينسى أخى وزملاؤه جميعا كيف ضرب أمام الجميع فقد اعتقد أنه يستطيع أن يهرب بسيارة متى شاء بنفوذ المدير، ولكن نفوذ الأب كان أقوى وأوقع.

وحدث بعد ذلك أن صمم الناظر نفسه على طرد تلاميذ السنة الخامسة «البكالوريا» نهائيا. وأظن أن السبب كان خطيرا. غير أنى

لا أذكره الآن، وصعق أولياء الأمور ووسطوا أبى لدى الناظر، وبعد مفاوضات ومحاولات جاء الصفح وعاد كل إلى سبيله ومنهم الآن أسماء معروفة.

خفف أهل أسيوط أحزان أبى والتفوا حوله. ومضت الأيام. وفكر أبى فى الزواج ثانية. وإذا بالخبر ينزل علىَّ نزول الصاعقة. أين الشعر الحزين إذن؟ أين الوفاء؟ أين القسم الذى أقسمه وكتبه شعرا على قبر والدتى؟ تتابعت فى ذهنى كل هذه الأسئلة التى لا تتبادر إلا إلى أذهان أبناء الخامسة عشرة الذين لا يقبلون من الأوضاع إلا ما يناسب رغباتهم هم، وكنت حتى هذه السن أعتبر أن هذا البيت مانعاً فعليا يقف فى وجه أى تفكير فى الزواج:

سألقاك لم يُشغل فراغ تركته
ببيتى ولم يملأ مكانك من قلبى

والغريب أنه عندما أعلن خبر زواجه أرسلت إليه سيدات من العراق وسوريا يستنكرون هذا الزواج ويعتبرن أن قلعة الوفاء للمرأة قد انهارت، ويلوحن له بديوان «أنات حائرة» ونشرت بعضهن مقالات فى مجلة «الرسالة» كلها لوم وعتاب، وكان يطلعنى على تلك الرسائل المشتعلة وكنت أبدى إعجابى بها.. خصوصاً وأنها تعبر عن رأيى الذى لا أجرؤ على الجهر به.

لم يكلمنا أبى فى موضوع زواجه. بل أرسل إلينا عمى، أو بابا أحمد. كما نسميه، وقد اختاره لهذه المهمة لسعة أفقه وحيلته وذكائه الوقاد، ولم تكن تختلف معاملته لنا عن معاملة أبينا، ولم تكن حقوقه علينا تقل عن حقوق أبينا، أرسله لنا ليمهد لنا الطريق، فإذا بأخوى يسكتان وإذا بى أناقش مناقشة عظيمة وأدخل فى حوار لست على مستواه. وأخذ عمي يلاطفنى ويردنى إلى أن جمعنا والدى.. وكان رقيقا كعادته وقال «إذا كنتم غير راضيين.. فنحن مازلنا على البر» وأريد أن أسمع منكم أنكم راضون.. فأجابته أختى وكانت قد تزوجت إنها راضية، ولم أجب أنا.. فالتفت إلى وقال «قولى إنك مبسوطة» فلم أجب.. وكان هذا فى وقتنا يعتبر منتهى الجرأة والتحدى..

وانتهى الاجتماع وانتابتنى بعد ذلك نوبة من البكاء، ثم نوبة من الضحك العصبى وتبادلت على النوبات متعاقبة. لو قلت أكثر من عشر مرات لما كنت مبالغة.

وقد أشار أبى إلى هذا الموقف فى إحدى قصائده عندما قال:

وبنيات تخطرن على
رونق العمر وموشى صباه
قلن ما خطب أبينا بعدما
هصرت بين ذراعيه مناه

فبكاهـــــا.. وبكاهـــــا ومضى
مثـــلا يضـــرب فـــى الدهـــر وفـــاه

يابنــــــاتى مـــــن ذاق الهــــوى
قدســـاً عـــاد إليــــه فــــارتواه

لـــو إذا اقتنيــــه كـــدرا لصفـــى
عـــن جديـــد منـــه قلبـــى فأبـــاه

يابنــــــاتى إذا القلــــب صبــــا
وهـــن العـــزم وخــــارت قدمـــاه

فــــإذا عوتــــب فــــى صبوتــــه
لّـــج فيـــها.. هكـــذا الله يـــراه

وتزوج أبى من أمينة صدقى ابنة إسماعيل صدقى باشا وهى سيدة لم أر فى الناس مثلها فهى ذكـاء متقـد، وسـريرة نقيـة وقلـب حـان وخلق قويم. لم نطالبها بشيء وأعطتنا من نفسـها وقلبـها كـل شـيء. ولكن كل هذا لم يمنع سـوء استقبالى لفكـرة الـزواج. فـى أول الأمـر. ومشـت بنـا الحيـاة فـى أسـيوط. ولم أكـن أريـد أن أرى الجوانــب الحسنة فى زوج أبى. ولو أن هذه الجوانب تنكشف أمامى يوما بعـد يوم. وكنت أبتعد عنها وألجأ لأبى فى كـل أمـورى، ولعـل علاقتـى بأبى بدأت تقوى وتتأصل لذلك السبب. أتم أبـى فـى أسـيوط روايـة العباسة. ومثلت فى دار الأوبرا. ودعاه الملك بعد أن شاهدها إلى قصر

عابدين مع الفرقة القومية ولجنة القراءة لتناول الشــاى. وأنعـم عليـه برتبة الباشوية. وتبارى أهل أسيوط فى إظـهار مشـاعرهم نحـو أبـى بمناسبة الباشوية. فقد كان يدعى كـل ليلـة ليسـهر عنـد واحـد مـن أعيان البلد. واستمرت هذه الحفـاوة شـهرا علـى الأقـل. ودعينـا أنـا وأخى عند عمدة أسيوط صمويل شنودة وكانت السـهرة فـى قصـر لـه حديقة مترامية الأطراف لم أرلها آخرا. وامتدت المائدة على النجيل. وكانت الأطباق التى بـها ألـوان الطعـام مضـاءة بالكـهرباء. والمائدة عبـارة عـن أنـوار تتـلألأ، وكأنـها أحجـار كريمـة مختلفـة الألــوان. والحقيقة أن هذا المنظر بهرنى وأنا فى هذه السن الصغيرة. ولم أجـرؤ أن أسأل كيف يضاء الطعام ولم أظـهر الدهشـة وكأنـه شـىء طبيعـى بالنسبة لى. ولم أنس هذا المنظر إلى اليوم.

كنا نحضر عرض رواية العباسـة كـل ليلـة حتـى حفظنـا نغمـات أصوات الممثلين فـى جميـع المواقـف.. وكـانت أختـى تعـد الأمـاكن الخالية فى الصالة وتعتبر المقعد الخالى إهانة شخصية لها. والحقيقة أن الجمهور كان يحـب الشـعر ويـهتز لـه. بـل كـان أحيانـا يكمـل الأبيات مع الممثلين. ففــى «قيـس ولبنـى» موقـف لابـن أبـى عتيـق يـهدئ من ثائرة «قيس» وهو يحاول أن يعيد إليه لبنى:

اصطنـع يـا قيـس صـبرا
إننـــــى أعرفهنــــــه

إن للنســـوة جـــــهلا
وهـــوى يملكهنــــه
خلـــق ركـــب فيـــهن
فواتـــى طبعهنـــه
لا تـــرع ممـــا تراه
وتنظـــر رشـــدهنه
طـــابع النســـوة فـــأعلم
يتمنعـــــــــنن
فيكمـــل الجمهـــور
« وهـــنـــه »

وتكرر ذلك فى كل مرة شاهدت فيها « قيس ولبنى ».. ولا أنس يوم افتتاح « قيس ولبنى » ظل أبى ملازما الفراش ملتفا بجميع الأغطية الموجودة فى المنزل، فقد انتابته قشعريرة.. من شدة الارتباك فهو ينتظر فى هذه الليلة حكم الجمهور على أول عمل له يظهر على المسرح وكان أخواه وأعمامه يهدئون من روعه، ودقت الساعة وذهبنا مساء إلى المسرح وكانت الأنوار تتلألأ، والسيدات بملابس السهرة الفاتنة، والجواهر الثمنية يزدن دار الأوبرا جمالا على جمال.

ومثلت الرواية وقوبلت مقابلة حارة، وأظهر الناس إعجابا بالشعر وإحساسا صادقا به.. وبكت السيدات إشفاقا على لبنى حين قالت :

يـارب هـذا مـاقضيت فليـس لى
فـى العقم مـن ذنـب وأنـت عليـم
زعمـوا قضـاءك تهمـة فتـألبوا
هـذى تعـيرنى وذاك يلـوم
يـارب تعلـم أننـى صانعتـهم
والقلـب منـهم مثخـن مكلـوم
وبغـوا فلمـا قلـت يـا نفسـى اصـبرى
غضـب الظلـوم.. وعوتـب المظلـوم

ونجحت روايـة «قيـس ولبنـى» وذهبـت القشـعريرة عـن أبـى.. ولم يحاول أن يخفى فرحته فقد كـانت عينـاه تفيضـان بـها، ولكـن تواضعه ورقته لم يفارقاه، لحظة واحدة.

مخرج الرواية

وأترك الأستاذ فتوح نشاطى يتكلم فى كتابـه (خمسـون عامـا فـى خدمة امسرح) ويقول: ولأول مرة فى تاريخ المسـرح الشـعرى تضـرب رواية «قيس ولبنى» كل الأرقام القياسية فى النجاح الأدبى والمادى. فقد مثلت أول الأمر شهرا ونصفـا علـى التـوالى، ودرت علـى الفرقـة أكبر الإيرادات. ثم أعدنـا تمثيلـها بعـد ذلـك عشـرات المـرات. وقـد قدمت إدارة الفرقة للمخرج والممثلين والممثلات هدايا نفيسـة لمناسـبة نجاح الرواية العظيم. ولما بذلوه من جهود ممتازة فى القيام بعملهم كما قال الأستاذ محمد حسن مدير الفرقة فـى حديـث صحفـى. هـذا

عدا ولائم شائقة قدمت لنا خلالها ألوانا من الطعام الفاخر وعلى رأسها العدس الأباظى المشهور.

ويستمر الأستاذ فتوح قائلا فى الكتاب نفسه : كتبت مجلة آخر ساعة المصورة فى صفحة عالم الفن هذه الحادثة التى إن دلت على شىء فعلى تواضع مؤلف قيس ولبنى «ومن ظريف ما حدث فى حفلة افتتاح رواية قيس ولبنى» أن الجمهور أراد أن يرى المؤلف ويحييه. ولكن عزيز أباظة وهو رجل متواضع حيى خجول أبى أن يظهر على المسرح ليرد تحية الجمهور. وانكمش فى البنوار الأول فى ركن منزو لايراه منه أحد. ودبر محمد حسن مدير الفرقة مؤامرة لطيفة مع الأستاذ شكرى راغب مدير مسرح الأوبرا لإظهار عزيز أباظة على المسرح على الرغم منه. فطلب إليه أن يذهب بعد الفصل الثالث مباشرة إلى المسرح ليهنئ المثلين على نجاحهم. وأجابه عزيز أباظة إلى طلبه ولكنه لم يكد يصل إلى منتصف المسرح حتى ارتفعت الستار. فضربت معه لخمة. ووقف مبهوتا دقيقة أو دقيقتين لا يدرى ماذا يعمل والجمهور يصفق ثم خرج من المسرح عدوا.

وبدأ بعد ذلك فى كتابة مسرحية شعرية عن «ديك الجن» وكان لايزال يملى علينا الشعر ولم يكن يكتب رواياته بخط يده بعد ، وكان بعد عودته من عمله يخلع ثياب الخروج، ويلبس ثيابه المنزليه.. وبعد تناول غذائه يجلس على كرسيه الخاص به، وإلى جانبه منضدة عليها أقلامه وأوراقه، وعلى الأرض وحوله قدميه

يضع كتبه ومراجعه، ثم يمسك بحاجبه الأيمن بأصبعه ويملى علينا الشعر.

وكلما تذكرت هذه الصورة خيل إلى أنها لوحة جميلة تمثل شاعرا مرهفا يكتب وسط عائلته بهدوء ودون ادعاء.

وقد أتم فصلا كاملا فى رواية.. «ديك الجن» وأذكر بعض أبياته:

اخطرى ياظبية القاع
وياعود الأراك
أنا يابنت السنا والمجد
كالبدر أراك
عز بيت قد تبناك
وملك قد نماك
وتسامت شرفات
شع منهن سناك
خصك الله بحسن
لم ينل منه سواك

وأخذنا نقرؤها فى غيابه ونقلب فيها حتى أضعناها، وجاء فى ميعاده يسأل عن الكراسة فإذا بنا نرتبك ونتلجلج، ونجد فى البحث عنها ونحن نعلم أننا لن نجدها وأظنه رأى الخوف فى أعيننا ففهم وسكت، ولم يقس ولم يعنف حيثما كان يجب أن يقسو وأن يعنف.

ثم فكر فى كتابة مسرحية شعرية عن معاوية، وكان رأيه أن المخرج سوف يجد مجالا واسعا للإبداع لأن حكم معاوية كان يتسم بالفخامة والإبهار.

وفى مقابلة مع الدكتور طه حسين كلمه عن معاوية وقال له إن الفكرة قد تسلطت عليه تماما.

فقال الدكتور:

– انصحك يا عزيز ألا تفعل، فمعاوية شخصية غير محبوبة، إذا جاملته ثار عليك البعض، وإذا ظلمته ثار عليك البعض، وفى الحالين لن تكون منصفا.. فعدل أبى ولم يتردد.

كان الخط مجرم الصعيد الذى دوخ الأمن فى عنفوانه عندما كان أبى مديرا لأسيوط وكان من المستحيل القبض عليه. فقد كان يحميه بعض الأعيان، وكان يخشاه الناس فلا يبلغون عن مكانه، بل ويسترون عليه. فقرر الحكمدار أن يقبض على زوجته ووالدته حتى يضغط على الخط ويسلم نفسه، ولما علم أبى ثار وغضب، وكان فى موقفه هذا إنسانا وشاعرا. وقال للحكمدار فى حدة:

– إن هذا التصرف ليس من الإنسانية ولا من الشهامة فى شىء. إن واجبنا أن نصل إليه بالقوة لا عن طريق النساء اللائى لا حول لهن ولا قوة.

وأخلىسبيل المرأتين، وتمكنوا من القبض عليه بعد شهور بالطريق السليم. بخطة محكمة، وكمين – وقوة ضخمة من البوليس.

وأذكر يوما ونحن لانزال في أسيوط أن جاءت ناظرة المدرسة الثانوية التي كنت بها لزيارة أبي، فرحبت بها وبقيت معهما ظنا مني بأن من الواجب على أن أبقى. وبعد قليل قال والدي: دعينا وحدنا قليلا فدهشت لدرجة أنني كذبت أذني. ولم أتحرك من مكاني فأعاد طلبه، فخرجت وكلي حيرة فيما عسي أن يكون سرا بين الذظرة وبين أبي، ولم يهدني طول تفكيري إلى شيء. ولكني علمت بعد ذلك من إحدى المدرسات أن أبي قد قرر أن يدفع تكاليف السنة الدراسية لاثنتين من زميلاتي في الفصل، لأنني قد عوفيت من دفعها ولم يكن يريدني أن أعرف عن ذلك شيئا، ولكن يا أبي الحبيب لو أني قد علمت.. لما استطعت إلا أن أكون ابنتك.

وفي يوم كنت جالسة في حجرتي أستعد لدخول امتحان في اليوم التالي وإذا بمن يدخل علي ويقول لي إن أبي يطلبني، فغضبت، لأنهم يعطلون استعدادي للامتحان، ولكنني ذهبت طبعا على عجل وجدت أبي جالسا في مكانه المعهود وعندما رآني قال لي: لقد أرسلت في طلبك لأسمعك ما كتبته الآن في رواية الناصر فاجلسي واسمعي فجن جنوني من الغيظ، ولكنني كتمته في أعماقي وجلست على مضض أستمع إلى الشعر، وعقلي كله في دروسي. وزاد من غيظي أنني لا حول لي ولا قوة، وأنني لا أستطيع إلا أن أبقى وأن أسمع، وعندما انتهى أبي من قراءاته أسرعت إلى غرفتي وأخذت أبكي..

ويحى!! ألم أكن أعلم وقتذاك أن أبى ليس ككل الآباء؟ وأنه حمل على كتفه عبء المسرح الشعرى بعد شوقى، وأنه آلى على نفسه أن يحافظ على لغة القرآن رغم كيد الكائدين!! ألم أكن أعرف أن كثيرا من أساتذة الجامعة والمتخصصين كانوا يتسابقون إلى دراسة أعماله ويتلهفون على معرفة شيء عن حياته؟ كيف كان يكتب.. كيف كان يعيش وكيف كان يعامل أولاده وكيف وكيف؟؟ ألم أتنبه إلى أننى كنت إلى جانب فنان كبير؟ ألم أكن أشعر برضاء الله على حين أوجدنى فى كنف شاعر مرهف الحس عنده من الرقة أكثرها رقة؟ لعلنى اعتقدت أن الناس جميعا على شاكلته!! أو لعلنى كنت مثل باقى الناس الذين لا يقدرون اللاصقين بهم حق قدرهم!!

إلى أن كبرت ورأيت وفهمت وقارنت وأحسست، ولمت نفسى والإنسان ما أكفره!

وأذكر أننى ذهبت فى رحلة إلى تونا الجبل مع مدرستى، واجتمعنا فى فناء المدرسة فى الصباح الباكر وأخذنا معنا غذاءنا لأننا كنا سنقضى اليوم بأكمله فى الرحلة ووصلنا إلى تونا الجبل فى محافظة المنيا. وبعد أن شرح لنا المدرسون ما شاهدناه من الآثار هناك حان ميعاد الغداء، فجلسنا على الرمل وهممنا بتناول غدائنا، وإذا بمن ينادينى ويطلب إلى أن أذهب إلى الاستراحة القريبة منا حيث يوجد بعض أصدقاء أبى. ولما ذهبت رأيت أصدقاء أبى جالسين على مائدة أنيقة وطلبوا منى أن أنضم إليهم. فتحرجت، لأننى أفضل أن أبقى مع زميلاتى، ولكننى تشجعت ورفضت برفق. وشكرت بقدر ما

استطعت وعدت إلى زميلاتى دون أن أقول كلمة. ولكنــى خشـيت أن يغضب أبى لأنى رفضت دعـوة أصدقائـه. وعندمـا عـدت إلى أسـيوط وسمع منى أبى قصتى

قال على الفور:

– بل كنت أغضب لو أنك تركت زميلاتك يتناولن غداءهـن علـى رمال صحراء تونا الجبل، وبقيـت أنـت فـى الاسـتراحة الأنيقـة ثـم مـاذنب زميلاتـك إذا كـان لأبيـك أصدقـاء كثـيرون، ولــه علاقــات واسعة . ماذنبهن حتى تعاملى أنت معاملة خاصة مـن أجـل خـاطر أبيك؟..

وقبل أن أترك أسيوط.. تلح على تلك الحادثة الصغيرة. فقـد كنـا دعينا إلى فرح وجاءت صديقة لى لتذهب معنا. فـإذا بوالـدى بعـد أن حياها ينادينى ويقول لى: «أرجـو ألا تلبسـى شـيئا مـن حليـك فـإن صديقتك لا تلبس حليا بالمرة فلا تضايقيها» فقلت: «حاضر يا بابا» ولكنى لم أقل إننـى أنـا الأخـرى لم أكـن أملـك مـن الحلـى شـيئا.. وكبرت معى هذه اللفتة الصغيرة.. ولم أجد فــى النـاس هـذا الشـعور المرهف الرحيم. وكلما رأيت مـن مكنتـه الحيـاة مـن الظـهور بمظـهر الغنى والأبهة مع من لم تمكنه الحيــاة من ذلـك خـارجين معـا فـى اجتماع واحد وددت لو أنهم كانوا أقل أناقة وأكثر رحمة.

ترك أبى أسيوط وترك الوظائف الحكومية ودخل مجلـس النـواب ثم مجلس الشيوخ، واستقر بنا المقام فى القـاهرة ودخـل فـى مجلـس

إدارة شركات متعددة. وغير مجرى حياته.. وكان أخوه أحمد يقول «لقد دخل عزيز باشا الوظيفة فنجح فيها وأحبه الناس أينما ذهب ودخل الشركات ونجح فيها وعقد صداقات قوية مع الأجانب الذين عمل معهم ودخل ميدان الأدب ونجح فيه ورسخت قدماه فقد نجح فى كل ميدان دخل فيه».

كان أبى سعيدا عندما تقدم زوجى ثروت أباظة لخطبتى مع أنه كان لايزال طالبا فى كلية الحقوق، وحدد الزفاف بعد امتحان الليسانس وحدث أثناء تلك الفترة خلاف بين أبى وزوجته.. وأظهرت بلا تحفظ مساندتى لها، وإذا وقفت الآن وقفة هنا، لوجدتنى كنت مخطئة فى تقديرى للموقف، فقد كنت فى الثامنة عشرة من عمرى، وكنت أعتقد أن مشاعر الناس يجب أن تخضع للقوانين وأن حياة الناس يجب أن تسير فى فلك مرسوم، وكأنى أردت أن أخلع البيوت من واقع الحياة ودفاعتها.

وعز على أبى موقفى منه، وغضب منى وتجاهلنى إلى أن جاء يوم زفافى ولبست الثوب الأبيض ونزلت على السلم، وإذا به يقابلنى فى وسطه ويأخذنى بين ذراعيه ويقبلنى باكيا.. وغسلت دموعى ماقضيت فى تجميله ساعات وساعات، وأقيم الفرح فى بيت دسوقى باشا أباظة والد زوجى، وبدأت الزفة وهى فى نظرى الدقائق العصيبة التى تمر بها كل فتاة.. إنهم يقولون إن هذه الدقائق

لا تحسب من العمر، وهى فعلا لا تحسب من العمر؛ لانها تخرج الفتاة من الشعور بالحياة.. فأمام كل هذه العيون الفاحصة التى تنظر فى لحظة واحدة إلى شخص واحد لايسعها إلا أن تكف عن الحياة، وبينما أنا خارج الحياة نفذت إلى عيون أبى الحانية وهى تتابعنى، وبجانبه أم كلثوم واستطعت أن أسمع أغنية الزفاف التى سمعتها أجيال من قبلى وستسمعها أجيال من بعدى.

وذهبت إلى بيتى، وكان إذا زارنى أبى انتظر فى الصالون وأرسل فى طلبى، فى الوقت الذى كنت أفاجأ فيه ببعض الضيوف فى غرفتى.. ولن أقول إن زواجى لم تعترضه الصعوبات، فقد كان كل منا يحاول أن يثبت وجوده، فأثبت غباء وغرورا.. أخذا من عمرنا سنوات، وكان أبى إذا تدخل فبناء على دعوتنا، واضطر اضطرارا لأن يكون عادلا فإن كان الحق معى ساندنى علنا ولم يتحرج، وإن كان على شعرت بقلبه يساندنى وإن اشتد على بالقول أو انطلق لسانه بغير ما أريد.. ولقد كان شاعرا حتى فى أحكامه.. كان حانيا ولكن فى كبرياء.. لم أسمعه فى حياته ينطق بكلمة تجافى الذوق.. أو تجرح الأذن - فإذا نفرت الآن من بعض الألفاظ الغليظة التى تجرى على ألسنة الناس بسهولة سخر منى زوجى واتهمنى أننى أريد من الجميع أن يتكلموا بالشعر، ولكن عذرى أننى نشأت فى بيت شاعر عف اللسان.. رشيق اللفظ رحيم القول.

وفى أول حياتنا الزوجية نظم معنا أبى ميزانية البيت.. وأظنه كان فى هذا الموقف أرحم بزوجى، فأفلت من يدى زمام الأمر شهورا.. وكم لجأت إليه، وكم استنجدت به.. وكنت إذا ذهبت إليه وأنا معتنية بشكلى ومظهرى، أجابنى إلى طلبى بسرعة وهو راضى النفس متهلل الوجه.. وكنت أعرف ذلك وأستغل هذا الضعف فيه..

لم نهتم بأن نصور صورة تذكارية بملابس الزفاف، وكدنا أن ننسى - لولا أن أبى كلمنا يوما فى التليفون قائلا.. إنه حدد ميعادا مع «ارمان» المصور المعروف فى ذلك الوقت وأنه سيقابلنا هناك.. وذهبنا ووجدناه فى انتظارنا.. وبقى معنا إلى أن انتهى المصور من تحريكنا كالشطرنج بنفس الطريقة التى يحرك بها كل من يقع بين يديه، وتكون النتيجة صورة تذكارية.. ولكن لا حياة فيها.

كنت جالسة مرة مع أبى وسأل زوجى عن مفتاحه فوصفت له مكانه، فابتسم أبى وقال «أتتكلمان كزوج وزوجة ولم يمض على زواجكما أسابيع» وكانت نبراته فرحة مدللة، وكنا نسكن قريبا منه.. وكنت أذهب إليه كل صباح. ثم وجدنا شقة فى نفس العمارة التى يسكنها فانتقلنا إليها.. وأصبحت أزوره صباحا ومساء، وأحيانا وقت الغداء، وكنت إذا قللت عدد الزيارات اليومية تملكه العجب.. وإذا تأخرت يوما ساوره القلق، وحينما انشغلت بتربية الأطفال كان

هو الـدى يـأتى ويجلس إلى -- ويلاعبـهم، ويتقـرب إليـهم بـالوعود فقط. ورغم حبه لهم.. كان يرى أن ما يقال عن حب المـرء لأحفـاده أكثر من حبه لأولاده شيء لا يقبله العقـل.. ولا يقـره القلـب.. كـان يعتبر نفسه المسئول الوحيد عن أولاده.. فهو يتحمل عـبء المرض، والعمليـت الجراحية.. واستقبال الأطفال أيضا..

وكان عنده ضعف شديد لأختـى فـهى أول الفرحـة كمـا يقولـون، وهى التى شهدت وفاة أمنا حين كنت وأخى بالربعماية. وكان يحلو أن يعلن تفضيله لها ويبالغ فى ذلك أمامى، فكنـت أثـور أو أصطنـع الثورة والاحتجاج والواقع أنى لم أكـن أصـدق. فأنـا أعـرف مـن أنـا عنده.. ولكننى أعرف أيضا أنه يمازحنى.. وكان لابد لى أن أمازحـه وأدعى الغضب.. والحقيقة أن حب أختى له حب بـدأت قوتـه منـذ طفولتها حتى أنها كانت تحبه أكثر من حبها لأمـى.. وتبـدى ذلـك ولا تخفيه، وكان يعاملها برقة وحنان ومجاملة فزاد تعلقها به. ولعل حبها له هو أقوى حب فى حياتها. إذا استسمحنا الزوج والأولاد.

وكنت إذا طلبت منه شـيئا ظللـت ألح وألح حتـى يجيبنـى إليـه واعتاد منى على ذلك، بل إنه كان يقول لأصدقائه المقربين إلى قلبه.. إنه يحب تلك المناقشات وذلك الإلحاح، بل ويرفـض خصيصـا وهـو ينوى الإجابة ليطيل المناقشة وكنت أفتـح بـاب المرافعـة ولا أغلقـه، وكنت أقول له إن مركـزى الاجتمـاعى يفـرض علـى الكثـير، فيقـول

ساخرا «وأين هو هذا المركز الاجتماعى؟» فأجيبه يكفى أننى ابنتك وهذا يكلفنى كثيرا.

وكما كان يحب هذه المناقشات.. فقد كنت أحبها بدورى وأشعر أن الأرض ثابتة تحت أقدامى وأننى أستطيع أن أتحدى به الناس والأيام، وإنى أشهد - أنه غمر أولاده بعطفه وبحبه وبجاهه وعاش حياته لهم، وقد كتب مرة يصف مشاعره فى أوتوجراف لى:

وهبتك قلبا مع شقيقيك عامرا
بأغلى الذى عندى من الحب والعطف
وأسكنتكم احناءه منزلا لكم
فلو قد صددتم عنه أسكنتم طرفى
وأصفيتكم من حبة النفس رحمة
ويسعد نفسى أنها لم تزل تضفى
وأبدى حنو الوالدين وأتقى
فأخفى.. فينهل الحنو الذى أخفى
إذا ما بذلتم لى جزاء يضىء لى
بقية أيامى. فمن ساكب العرف
وإن كانت الآباء كهف فروعهم
فكهفكمو حبى. وحبكمو كهفى

أما علاقاته بأصدقائه وأقاربه فكانت أساسها الرحمة والود إذا قصد لبى ونسى الأمر. ذهبت إليه أطلب خمسمائة جنيه لأحد أقاربى كان عليه أن يدفعها فورا وإلا تعرض للقضاء، ولم يتركنى أبى أكمل قصتى الطويلة، وإنما أعطانى المبلغ بلا تردد، وتكرر منى الطلب فى هذا النوع من المشاكل، وتكرر منه العطاء إلى أن قال لى يوما ضاحكا: «هو إنتى مستخسرة فىّ فلوسى؟» ولا يتردد كالعادة. حكى لى أحد كبار ممثلينا المشهورين أنه ذهب وهو فى مستهل حياته الفنية إلى أبى وكلمه عن رغبته فى أن يدخل عالم الإنتاج، وكان هذا الممثل فنانا صادقا، وأحس أبى أنه يحتاج إلى مساندة لكى يكمل مشروعه، فكفاه مئونة الطلب وعرض عليه هو أن يساعده، وكانت طريقة عرضه فيها أبوة، وفيها حنان، حتى خيل لهذا الفنان أنه إنما لجأ إلى أبيه. وتم المشروع وظهر الفيلم ونجح ورد الممثل المساعدة ولم أسمع من أبى كلمة واحدة عن هذا الموضوع، وكنت دائما أعجب بأبى لأنه يحترم إنسانية الإنسان.. إذا طلب أحد منه وساطة ما، والاه هو بأخبارها حتى لا يتحرج الطالب ولا يشعر نه يضايق أحدا، كانت رقته تفوق كثيرا الدرجة المعتادة. كان يتصرف دائما بطريقة ناعمة إنسانية لا يفهمها الكثيرون..

وقص على مدير بنك مصر سابق، إنه عندما كان مديرا للبنك ذهب إليه أبى ليضمن صديقا له من الشرقية فى اعتماده، وكان المدير يعلم أن هذا الصديق حالته المالية مرتبكة.. ولن يستطيع

السداد، فحاول أن يؤجل الضمان، فرفض أبى، فاضطر المدير أن يخبر أبى بالحقيقة فقال أبى:

«أنا على كل حال ضامن ضامن «فأجابه المدير» إنت ضامن ولكنك ستضطر إلى الدفع نيابة عنه» فأجاب «لقد نشأت فوجدت عائلة هذا الصديق أصدقاء لأبى..» ورأيتهم وأنا طفل فى سلاملك الربعماية، فكيف أتخلى عنه، أنا ضامن ومستعد أن أدفع هذا الدين ولم يسدد الصديق ودفع أبى. لم ينس مدير البنك أن يمازح أبى ويقول له: ألم أقل لك يا باشا؟ فقال أبى «لقد فعلت ما يجب على أن أفعله» ومرت سنوات خمس وجاء أبى إلى مدير البنك مبتسما وقال: «لقد رد الصديق المبلغ وأرسل لى صندوقا من الكمثرى من الحديثة التى ساعدته على إنشائها «وطوال السنوات لم يتوان عن رد غيبة الصديق الذى اعتقد الجميع أنه اختفى إلى الابد».

دخلت مرة محل تحف صينية بجانب سينما أمير بالإسكندرية صاحبه رجل صينى مسن.. وسألته عن ثمن ترابيزة أعجبتنى فقال «لك أنت بالسعر الذى تريدينه.. وتدفعين فى الوقت الذى يناسبك.. فدهشت ولكنه قال: «إنك قد لا تعلمين أفضال والدك على فلقد دخل يوما محلى ووجدنى واجما حزينا فسألنى عما بى. فقلت إننى محتاج لمبلغ من المال لمدة شهر، فقد فاجأنى طارئ. ولا أجد حلا لمشكلتى – فإذا به يخرج دفتر شيكاته ويعطينى المبلغ بلا

أى ضمان، وهو لا يعرف غير المحل مكانا لى، فإذا أغلقته أو سافرت فأين له أن يجد مكانى.. وقد رددت المبلغ ولكننى لم أنس الجميل.. فأجبته أن هذا شىء طبيعى، وأنا أعلم أنه ليس كذلك فى رأى أغلب الناس، واخذت الترابيزة.. ودفعت ثمنها على عدة أقساط.

سفرت مرة مع أبى إلى الإسكندرية وكان يجمعه ود بصاحب محل بيع فضيات معروف اسمه «الحاج رشاد» وكان الحوار يدور بينهما عن الدين والأدب. اشترى أبى واشتريت أنا وقلت لأبى:

المبلغ كبير جدا ولن أستطيع أن أدفعه.. فأرجوك أن تدفعه لى ثم تخصم منى مبلغا أول كل شهر. فوافق أبى ونفذنا الاتفاق فعلا فى الشهر الأول، ثم نسى هو وتناسيت أنا ومرت الشهور وذهب أبى إلى الإسكندرية وتذكر الدين وجاء يحاسبنى فقلت:

– بل دفعت.. وإن كنت نسيت فما ذنبى أنا؟ وهل تحتمل ميزانيتى أن أدفع الدين مرتين؟ فسكت.. ولكننى بعد فترة قلت له ضاحكة:

– إننى لم أدفع شيئا.

– فأجاب غاضبا

– وأنا لن أتعامل معك بعد ذلك، وقد عرفت أخلاقك بهذا المبلغ ولكن التعامل تكرر بنفس قلة الذمة من ناحيتى.. وبنفس طيب

الخاطر من ناحيته، ولما ذهبنا إلى العمرة.. وكان قد دعانى مع أختى وزوج أختى لهذا السفر قلت له:

- إننى دعوت لك بالصحة وطول العمر عند النبى.. ولكنى استأذنته فى الاحتيال عليك أنت فقط..

وكنا قد أبدينا رغبتنا فى أداء العمرة، فظل يشجعنا ويسألنا يوميا عن إجراءات السفر.. وعن الاستعداد للسفر، وكان تحمسه يعادل تحمسنا أو يزيد عنه، ثم قرر أن تكون رحلتنا على نفقته.. وكنت أتعجب من شدة حماسه، ولكننى عرفت بعد ذلك أن فريضة الحج كانت أغلى أمنية عند أمى ولم يمكنها المرض ولا العمر من أدائها، فسارع إلى رغبتنا يلبيها لعله بذلك يرضيها ويرضينا، ثم أرسل للأمير عبد الله الفيصل.. ولست فى حاجة أن أقول ما وجدناه من حفاوة وتكريم.

كنت وأبى دائمى النقاش، وكان دائما يختلف معى، فهو رواح واسع الأفق ذهنه قابل للحركة والتجديد - إلا فى الشعر، وكان يتهمنى بضيق الأفق والرجعية فكان يرى أن الإنسان إنسان وأنه معرض للخطأ وأن الظروف قد تدفعه إلى حيث لا يريد أن يصل.. وكان يحب الجمال ويغفر للمرأة الجميلة الكثير. وكنت أرى أن الإنسان يجب أن يكون أقوى من الظروف وإذا تساهلت بالنسبة للرجل فلا أسمح للمرأة بالخطأ.. وكلما زاد جمالها زادت قسوتى

عليها لأنها يجب أن تحمى نفسها من غرور نفسها ومن الطامعين - ثم إن الزوج الخائن يمكن أن يسامح أما الزوجة فلاتوبة ولا غفران ولا نقاش - فالمرأة تخون نفسها وتخون أولادها وتخون الاسم الذى ائتمنت عليه، وإذا حاولت أن أتخلص من رجعيتى، وحاولت أن أكون مرنة حتى يحتملنى أبى وفرضت أن حبا دهم الزوجة وهى فى عقر دارها، فلتكتف إذن بهذا الشعور الجميل، فلا كلمة ولا لمس ولا خيانة وكان يستمع إلى مبتسما ويقول لى: «كان يجب أن تولدى فى القرن الماضى».

ذهبت معه يوما لنزور شقيقتى فاستقبلتنا وهى ترتدى روب زوجها وشبشبه، فانتقدها أبى فى رحمة ولطف، ولكنه لما خرجنا أبدى شعوره بالضيق وقال: «إنه ليس من حقها أن تبدو أمام زوجها هكذ ومنذ ذلك اليوم ظل يشترى لها من كل بلد عربى يزوره أجمل العباءات وأغلاها ثمنا لتكون كاملة الزينة فى بيتها، وكانت أختى لا تطلب شيئا أبدا.. كان هو الذى يسألها ويلح فى السؤال.. بل كان يسألنى إن كانت فى حاجة إلى شىء وكان هذا يثير فى نفسى الغيرة فكنت انتقاما منه أخترع الطلبات وأبالغ فيها، فيأتى بها دون تردد - ثم أختطف الفرصة وأقول له «يجب أن تعدل بيننا» وأطالبه بالمثل.. فيضطر إلى العدل اضطرارا.

قلت إنه كان يحب الجمال، وقد كانت لنا صديقة شابة يفوق جمالها كل وصف وكان أبى شديد الاهتمام بها، وكان يريدنى أن

أهتم أنا أيضا ولكننى رفضت هـذا العرض بشدة. لأسباب تعرفها الزوجات وقلت له.

- والله لو لم تكن هذه الصديقة بهذا الجمال لما بلغ اهتمامك بها إلى هذه الدرجة فأجاب مبتسما ومداعبا.

- «أنت ماعندكيش إنسانية دى عيانة ومحتاجة لرعايتى واهتمامى» والنتيجة أن إنسانية أبى كانت تثير حنقى على تلك الإنسانة الجميلة، وكما كان ضعيفا أمام الجمال.. كان ضعيفا أمام أبوته. ضعفا يخفيه حينا وينهل منه أحيانا، فقد خيل إلى يوما أننى أصبت بمرض خطير - لا علاج له ونسج خيالى ما شاء له أن ينسج حتى كدت أجزم بالأمر، فأصر أن يذهب معى إلى الطبيب ولم يمنعنى هلعى أن أشفق عليه وأن أثنيه عن مرافقتى، فقد قدرت أن جزعه سيكون أعمق من جزعى، وأن ألمه سيكون أكبر من ألمى، إنها المشاعر التى لا يجرؤ أن يحس بها الإنسان إلا لوالديه، إنها المشاعر التى إذا فقدناها اختل ميزاننا ومادت الأرض تحت أقدامنا، ولكن يكفى أننا شعرنا بها يوما، وطمأننا الطبيب وزال عنا الخوف.

أما عزيز أباظة الزوج، فقد احترم المرأة وقدرها. وأعطاها حقها من الحرية وعاملها معاملة الند للند رغم أنه من مواليد ١٨٩٨، ولم أره مع أمى إلا والاحترام قائم بينهما والحب يشع من حولهما،

ورأيته يقدر زوجته الثانية يجلها ويحمل لها أصفى الود وأصدقه، فقد رعته ورعت أولاده وجمعت شمل بيته بعد أن كان قد تصدع. وقد أكرمه الله ولم ينشأ بيننا وبينها خلاف كما يحدث عادة، وكنت أقول له: «إنك لم تذق طعم هذه النوع من العذاب» وهو عذاب فعلا لمن هو فى مثل رقته.. وإنى أحمد الله وأحمد زوجته لأنها لم تكلفنا هذا العناء، فقد أحببناها لأنها اختارت أن تكون أما لنا.. اختارت راضية ما تجبر عليه الأمهات إجبارا.. اختارت هى فكان حقها علينا أكثر من حق الأم وأكثر من حق الرحم، وقد وضعت هى وإخوتها تحت الحراسة، وفى ضربة عشواء تغيرت أقدار الناس وتحملوا الظلم بكرامة وثبات، وليس كالظلم يهد كيان الإنسن ويزلزل إيمانه.. ولقد عرفتهم صغيرة وكبرت بينهم ورأيت بيوتهم تستقبل الغنى وتستقبل الفقير بنفس الحفاوة وبنفس التكريم.. وأشهد أنهم تمتعوا بما حباهم به الله من مال وجاه، ولكنهم أسعدوا الناس وأغاثوا المكروبين.

وأشهد لزوجة أبى بأنها لم تبخل بمالها ولا بصحتها فقد كافحت الملاريا فى الأقصر سنة ١٩٤٣ والحمى الراجعة فى أسيوط سنة ١٩٤٥ وبنت بتبرعات الأهالى فى أسيوط مستشفى من أكبر المستشفيات فى مصر. وفى مصر القديمة جعلت من مستوصف صغير مستشفى اعتبر فى ذلك الحين وحتى الآن من أعظم المستشفيات،

وكان به أحسن الأطباء وأكفأ هيئة تمريض وكان مديره الدكتور مصطفى الشربينى الجراح الشهير.

وقد يكون مثل أولاد إسماعيل صدقى باشا كثيرون ممن فرضت عليهم الحراسة، ولكننى أتكلم عنهم بالذات لأننى خالطتهم وعرفتهم حق المعرفة، وقد هاجر عادل صدقى إلى كندا وهو يقترب من الخمسين ولاقى من المتاعب والهوان مالاقى إلى أن وجد عملا يناسبه، ولقد فضل المتاعب على الشعور بالظلم وفضل الغربة فى كندا على الغربة فى مصر.

وقف أبى إلى جانب زوجته، وكان زوجا مسئولا وأخا حانيا، وشريكا دمثا رقيقا ولكن لم تحتمل زوجة أبى الشعور بالظلم وقام صراع بينها وبين نفسها أدى إلى اضطرابات عصبية تسببت فى إصابتها بانسداد فى شرايين الساقين، وتقرر أن تجرى لها عملية فى لندن. سافر معها أبى واصطحبنى معه. واستغرقت العملية أربع ساعات كاملة، وقبيل العملية تحدث الجراح عن خطورة الحالة. وقال إنه ليس متأكدا من نجاح العملية.. وإنها قد لا تستطيع أن تسير أكثر من خمس دقائق متتالية، وطلب منها أن تكتب أنها قد أحيطت بالنتائج علما، وأنها قد قبلت بمحض إرادتها إجراء العملية، وأحببت الكذب حينئذ، ووجدته أرحم أحيانا بالناس من الحقيقة، وأما المريضة فكانت ثابتة هادئة وأما أبى فقد حاول أن

يخفى قلقه – وأن يكتم اضطرابه، وأما أنا فقد شعرت بجسمى يتخبط بعضه فى بعض، وأحسست بقلبى يترنح فى صدرى، ومرت العملية بسلام وكانت النتيجة أحسن بكثير مما قدر الجراح، وبقى أبى إلى جانبها شهرا بأكمله يحنو عليها ويجاملها حتى كادت الغيرة أن تدب فى قلبى، وبعد أن تماثلت للشفاء كنت أخرج مع أبى لنشاهد المتاحف والمسارح، وفى يوم ذهبنا معا إلى السينما، وبعد انتهاء العرض أمسكت معطفه بكلتا يدى ووقفت وراءه لألبسه إياه، وإذا بنظرات التعجب تنهال علينا من كل جانب وكأنى قد أجرمت عندما لم أراع بروتوكولهم، وقرروا بالنظرة السريعة اللائمة، أننى لاأمت للمدنية بصلة. والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا ألبس أبى معطفه، ولم لم يكن الرأى العام ضدى بهذا الشكل لالتفت إليهم ولقلت لهم: «إن أجمل شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وأمها» ورعايتهما لها.. فالأب يظل أبا حانيا مسئولا ناصحا إلى آخر لحظة فى حياته.. أما عندكم فالأبوة تنتهى عند بلوغكم سن الرشد.

وإن أجلنا الطرف فيما حوله وتركنا أولاده وزوجته جانبا لرأينا علاقاته العائلية متشعبة فقد كان شديد الحب لعمته، وهى سيدة شديدة الذكاء، واسعة الصدر تتكلم فى كل موضوع باتزان ووضوح فطرى، وكانت لا ترحمنا نحن أهل بيته إذا سببنا له أبسط المضيقات وكان متعلقا بأخته وهى تكبره بعدة سنوات، وهى سيدة

سريعة البديهة تحفظ الشعر وتستشهد به رغم أنها لاتكاد تقرأ، ولكنها خالطت في صباها جيلا من الناس أحب القراءة وحفظ الشعر وتعمق في الأدب، وكان أبي يحب الجلوس إليها ويستعيدان معا ذكريات طفولتهما، وكانت تشهد له دائما بعذوبة الحديث وتقول: «أخي عزيز يضع قطعة من السكر على لسانه» ولكن كان يحلولها أن تشكو منه إليه وأن تذكره دائما بما فعلته له وهما في بيت أبيهما.. وكم وضعت في جيبه الجنيهات الذهبية كلما عاد إلى المدرسة بعد الإجازة، وكم تعمد أن يبدو وكأنه لايراها حتى لايمنعها من ذلك وكان يضحك ويقول لها: «وكيف أنسى أفضالك» ولكنها إذا أحست أن به ضيقا كانت نارا على من سبب له هذا الضيق، وعندما تنفرج الغمة تعود إلى الشكوى، وكان يحبها كما هي. أذكر مرة أنه وعدها بأقمشة كهدية في مناسبة ما.. وقال لي أمامها: عليك أن تشتري لعمتك أحسن ما في المحلات من أقمشة، فذهبت وأردت أن أرضي أبي وأرضيها، فأخترت أقمشة جميلة وبسعر معقول، ولما رأت الهدية بدا عليه الامتعاض ولكنها لم تقل شيئا، فلا هي أثنت ولا هي انتقدت وإذا بها بعد ذلك تشكوني لأبي. وكيف أنني لم أوفيها حقها وكيف أنني اشتريت أقمشة لا تليق بها، وكيف وكيف. فغضب أبي وقال لي «وهل طلبت منك أن توفري لي، كيف تغضبين عمتك؟ وكيف لا تعرفين مايليق مما لايليق؟ والتفت إلى أخته قائلا: «أنا الذي سأشتري لك بنفسي كل

ماتريدين. «ومرت الأيام وجاءت المناسبة تلو المناسبة وطبعا لم يذهب أبى إلى المحلات لشراء الهدايا لأخته، وطال انتظار عمتى، ولم يصلها إلا الوعود والنية الطيبة وبالطبع لم أتطوع لأحل هذا الإشكال. وفى يوم تقابلت معها عند أبى فأخذت تربت على كتفى فى نعومة، وتنظر إلى نظرات مدللة، وتقول وتريد أن يسمع أبى: «الحق علي لك لقد أدركت خطأى. من قال إن ما اشتريته لى لم يعجبنى؟ إذا انتظرت أن يشترى لى أبوك فسوف أنتظر عمرى كله. لن أشكوك بعد اليوم» ويضحك أبى ويأمرنى بتسلم مهام عملى الأول، ولكنى تحريت هذه المرة أن أشترى الأغلى ثمنا حتى أرضى عمتى وأعاكس أبى.

لما استقربنا المقام فى القاهرة سكنا فى حى الدقى وكنا نتمشى معا كثيرا فى شوارع القاهرة، ولايكاد واحد من المارة يمر دون أن يحيى والدى فقد كانت معارفه كثيرة بدرجة مذهلة، وكان يحيى رافعا يده إلى رأسه بحرارة تتفاوت على حسب درجة المعرفة، وفى يوم كنا سائرين أمام منزل صديقه سعيد بك الألفى فقال لى «تعالى أعرفك بسيدة جذابة الشخصية، ودخلنا ووجدنا صاحبة المنزل السيدة اعتماد الطرابلسى جالسة مع زوجها وأصدقاء لهما.. وأقبلت علينا تحيينا.. بوجه بشوش وصوت ساحر، وجلسنا معهم ودار الحديث عن الشعر فإذا باعتماد تقول شعرا من قيس ولبنى بصوتها الجميل وبنطق عربى أخاذ.. وبهرتنى هذه الأديبة الفنانة المعجبة. وأذكر

يوما أننا خرجنا نتمشى على النيل فإذا بى أرى أبى يعانق صديقا له التقينا به صدفة وينادية «بياصديق العمر» ورأيت شوقا يفيض من عيونهما وحبا ينطق به وجهاهما، وما أن انتهى اللقاء الحار حتى سألته: «عن هذا الصديق الحبيب فقال إنه زميل دراسته وصديق عمره مصطفى مرعى» فقلت «كيف تحبه كل هذا الحب ولاتراه إلا صدفة» فقال «إنها الحياة تباعد بين الناس ولكن لا تستطيع أن تنزع الود من قلوبهم ولطول عملى فى الأقاليم قلت لقاءاتنا ولكنى أراه دائما عندما أكون فى القاهرة» وقص على كيف تعرف على مصطفى مرعى.. وقد كتبها فى الخطبة التى أعدها لاستقبال مصطفى مرعى بعد ذلك بعشرين عاما، وذهب قبل أن يلقيها واترك قلمه يصف التعارف «تلاقينا فى مدرسة الحقوق وكانت الثورة الكبرى قد اندلعت فى البلاد عامة فظاهر أهل البلد أجمع، ثم اختلف زعماء البلاد اختلفوا أى التدابير أسرع وأكفل لتحقيق الآمال؟ كان طلبة كلية الحقوق فى طليعة الطلبة الثائرين.. وكانوا جميعا إلا قلة قليلة منهم يؤمنون أصدق الإيمان بزعامة الزعيم الخالد سعد زغلول - تستهويهم وتسحرهم كلمته، ولم أكن منهم. وكان مقهى مدرسة الحقوق ندوة للطلبة يتشاورون فيه.. وذات صباح كنت جالسا بهذا المقهى.. وعلى قيد خطوتين منى جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الحديث ويناقشون فى الخطط والتدابير وإذا بواحد منهم قامت بعد ذلك بينه وبينى صداقة رحمه الله يقول وهو يشير إلى بإيماءة طرف

لم يخفها: «احترسوا فإن إلى جوارنا خصما لنا ولاجتماعنا غير مأمون الجانب» ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا الرأى ولكن واحدا منهم اعترت طلاقة وجهه مسحة من العبوس ثم أجال نظرات فى إخوانه جميعا ثم بدأ يتحدث فى خفوت وهدوء.. تحدث عاتبا ثم لائما. ثم أخذ يتناول حرية الرأى وحرية التعبير، وحرية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يتلاءم مع نفسيته واقتناعه مدافعا عن ذلك الذى وجهت إليه تلك الإشارة النابية، وحين عورض اندفع فى صوت متهدج يؤيد آراءه. ويقول إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة، وبرهان على محاولات كريمة تنشد الوصول إلى الحق، ولست أذكر كلمة الزميل على وجه الدقة ولكننى أذكر كلمة وكأنما سمعتها منه أمس قال: «فليؤمن كل منا بما آمن به وهذا خير. أما عبادة الأشخاص.. والتسابق إلى تأكيد ما يقولون وتقديس ما يصنعون فإنها علامة إسفاف متهافت يصيب الأمم والشعوب» ثم قام والغضب والأسف فى وجهه، ملامح هذا هو مصطفى مرعى كما عرفته فى أول لقاء، وظل على ما هو عليه إلى يومنا هذا «وانتهى وصف أبى لصديق عمره».

ورثاه مصطفى مرعى بعد مقابلتنا له على النيل بعشرين عاما فى المجمع اللغوى، وكان أبى قد أعد خطبة لاستقبال صديق عمره فى المجمع، وأجل سفره إلى الخارج مرتين ليتمكن من إلقائها بنفسه، إلا أن الله دعاه إلى جواره ولم يلقها، وقد طلب إبراهيم بك مدكور

عضو المجمع من بهى الدين باشا بركات أن يسألنى إذا كان أبى قد أتم الكلمة، ليلقيها ثروت أباظة بدلا منه. وكانت لفتة رقيقة. وألقى ثروت الكلمة وقام مصطفى مرعى وقال وصال وجال وتكلم عن الفلسفة والأدب ثم تكلم عن والدى كصديق وذكر مناداته له «بيا صديق العمر». وهو نداء لا ينسى لأن نبرات الصوت كانت من خفقات القلب ثم تكلم عنه كشاعر بلسان تنساب منه العواطف المتدفقة وبقلب ينهل منه الأسى..

وأذكر بعد وفاة السنهورى باشا أقام المجمع حفل تأبين فى سنة ١٩٦٨ ورثاه أبى بقصيدة منها:

ظلم الموت أن فى أحضانه
مرفأ للغريق فى أشجانه
ومجازا إلى جوار طهور
ساكب حوله سنا رحمانه
غيب الموت شافعى زمانه
وأصاب القانون فى برهانه
يعظم الخطب فى العظيم إذا لم
يرق راق إلى عوالى مكانه
نكس الفقه رأسه يوم أودى
وانطوى سامدا على احزانه

راض للبـــاحثين جامحـــــه
الصوب وأرخى لهم عصى عنانـه
وحبـــاهم مـــن المراجـــع
بالغيث تضىء الشروح فى هطلانـه
صفوة القول أنـه عبقرى الجيـل
غـير المسـبوق فـى ميدانـه
ذو حياء فى فضله حين بعض الخلق
ذو خبلـة علـى نقصانـه
جمـع الشـرق وحـده فتلاقـى
فـى ديـابيح علمـه وبيانـه
سادن العدل أعـرض العـدل عنـه
سـاخرا عـن يقينـه وحصاتـه
رأيـه الحـر عـد مـن سـيئاته
والإبـاء الوقـور مـن سـقطاته
حسد الحاسدين يفضي عن السفح
ويرقـى للطـود فـى شـرفاته
إن رأى الإنسـان ضـرب مـن
العرض هما الأكرمان من حرماتـه
فـإذا سـاقه اسـتطارت قـوى
الشـر فـألوت برزقـه أو بذاتـه

وإذا البغـــى لم تزلـــه فأمـــهل
تفـــل الأيـــام حـــد شـــباته
ليـس حكمـا حكـم يشـق مـن
الإرهـاب مهواتـه إلى شـهواته
ليـس شـعبا شـعب يقـر علـى
الضيـم ويشفى غليلـه فـى نكاتـه
إيـه عبـد الـرزاق أضفـى عليـك
الله مـن فضلـه ومـن رحماتـه
وتـولاك مـن رضـاه بفيـض
يتـوالى عليـك فـى جناتـه
يكـرم الله نـافع النـاس قبـل المنطوى
فـى صيامـه وصلاتـه
جـزع المجمـع الوقـور وهـل
يجـزع إلا للصـم مـن نكباتـه
كـاد لـولا حيـاؤه وجـلال
العلـم يـروى أسـاه فـى عبراتـه
أنـت حـى وإن طوتـك المنايـا
ومـن النـاس ميـت فـى حياتـه

وأذكر أن مصطفى بك مرعى كلمنـى فـى التليفـون حـوالى السـاعة لواحدة ظهرا وقال لى «أين عزيز؟ إنـى أريـد أن أقبلـه» فقلـت إنـه

لم يصل إلى البيت بعد فقال: «لقد قبلته فى المجمع مهنئا بالقصيدة ولكننى أريدك أن تقبليه عنى ثانية فلقد كانت القصيدة فوق الإبداع.

ولا يفوتنى مادمت قد تكلمت عن المجمع أن اذكر أن أبى قد دخل عضوا فى المجمع عام ١٩٦٢ وأن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد استقبله بخطبة قيمة أسوق منها هذه السطور: يقول العقاد: «من نحو عشرين سنة ظهرت فى أفق البيان العربى آية من آيات الشعر والمسرح: هى رواية «قيس ولبنى» لشاعر لم يعرف له عمل فى هذين الفنين قبل ذلك: وهو زميلنا اليوم بمجمع اللغة العربية الأستاذ عزيز أباظة. وكان من حظى أن أقدم تلك الآية.. كما كان من حظى أن أقدم صاحبها اليوم فى هذا المجمع فقلت يومئذ فى مقدمتها: مؤلف قيس ولبنى لو قضى عشرين سنة فى السعى إلى المكانة الأدبية التى يعرفها له الأدب العربى الآن لما كان ذلك بالكثير على تلك المكانة.. لأنه باتفاق الجلة من العارفين شاعر من شعراء الطبقة الأولى فى اللسان العربى.. ومؤلف من مؤلفى القصص التمثيلى المعدودين فى هذا الزمان، وتلك منزلة رفيعة لا يكثر عليها أن تدرك فى عشرين سنة. ولا فى عشر، بل عرف بها فى أسابيع قلائل بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة ممن يستطيعها ويهواها. لأنه غنى بالجوهر الأصيل ولم يعن بالعرض المضاف، أو هو قد اهتم بالقدوة ولم يهتم بالتقدير الذى لم يتطلبه ولم يضيع فيه وقته.

ثم تمت للشاعر النابغ عشر آيات قبل «قيس ولبنى» آخرها «قيصر» عصر عواهل الرومان ومن قبلها «قافلة النور» فى عصر الدعوة الإسلامية.. وأرى أننى أعود إلى تلك المقدمة فلا أغير منها كلمة وأعود إلى تلك القدرة التى تبينت لنا من المشاعر فى آيته الأولى فإذا هى لم تتغير فى الجوهر، وإن كانت فى ازدياد بتقدم ولا يتكرر، فكل ملامح القدرة المعهودة واضحة فى قيصر وضوحها فى «قيس ولبنى» كما تتضح ملامح الرجل الكبيرة فى صورة صباه. هل يراد بهذا إن شاعرنا بلغ الشأو اخيرا وكان دون الشأو بكثير فى بواكيره الأولى؟ كلا إنه قد ارتفع إلى الطبقة الأولى بين شعراء العربية يوم ظهرت له قيس ولبنى بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة كما تقدم.

وربما كان للوظيفة حكمها فى هذا الانطواء الفنى مدى تلك السنين التى تقدم بها الشاعر فى أطوار الاستعداد والمراجعة، فإن المدير أو الحاكم قلما يناسبه أن يطالع الناس بنجوى فؤاده كل يوم فى الصحف السيارة ولكنه لا حرج عليه أن يرفع الستار حينا بعد حين ليتحدث إليهم بألسنة الممثلين وأبطال الفن والتاريخ. لا عجب إذن أن يطالعنا الشاعر بملكة نمت وأينعت وأن نرى فى «قيس» كل مانراه فى «قيصر» من تمكن الأستاذية وطمأنينة اليد الصناع والخبرة التى انتهت من المحاولة إلى الحول، ومن التجويد إلى الجودة.

وإنك لتقرأ عمله المسرحى وتقرأ له رأيه فى المسرح فتعلم أنه يهتدى مع السليقة برأى الناقد وذوق المشاهد. ويحسن الموازنة بين رأى ورأى، والمقابلة بين ذوق وذوق، فيعطى الصناعة حقها. ويصدر عن السليقة قبلها، ويكون أول الناقدين لعمله فلا يصيبه الناقد. إن أصابه.. إلا حيث يتقيه.

ولكننا نستقبل الزميل الجديد فلا يفوتنا أن نذكر له فضلا سابقا إلى إنصاف اللغة العربية وجلاء الحقيقة عن طبائع أهلها.. فقد طالما قيل إن شعر المسرح لم يظهر فى آدابنا قديما لضيق فى حظيرة القريض العربى وقصور فى خيال أبناء العربية، ولقد طال الرد على هذه الدعوى وتكرر القول ببطلانها، وعاد المؤرخون بالسبب إلى طبيعة البادية فى مجتمعها وشعائر دينها. فالزميل الجديد يؤدى بمجاميعه العشر قسطا فوق قسط الشاهد الواحد فى هذه القضية الرابحة، فإن له لنهجا من النظم البليغ يلتزم فيه شروط القريض ويتحرج فيه مما يباح للشاعر الموجز والمطيل، ويودعه ما يريد على ألسنة الرجال والنساء، وأمزجة الخيرين والأشرار، وخلائق العلية والسواد.. ومواقف القوة والضعف والضحك والبكاء، والرضى والحزن، فيتسع لما أودع، ويجاوز مدى التعبير إلى غاية من البيان المشبع والأثر البليغ.. ويكاد أن يلتزم مالا يلزم فى القصيد فيجرى الحديث الواحد على وزن لا يتعدد.. ويفرغ الموقف الواحد فى قالب لا يتشعب.. ويوشك أن يتحرج من قصر الممدود ومد المقصور وهما فى سعة من العذر المقبول لكل شاعر وفى كل مقام.

إن اللغوى العامل – عزيز أباظة – لفى الرحب والسعة فى مجمع اللغة العربية.. رشحته له أعماله الفصاح، ولم يرشحه له صاحب الأعمال كأنما شاء أن يصدقنى اليوم كما صدقنى قبل عشرين سنة إذ كنت أقول ما أعيده الآن «إنه اهتم بالقدرة ولم يهتم بالتقدير، فلم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فى برجه الأسنى قد جاوز الأفق وأصعد فى سمت السماء».

وعلى ذكر المجمع اللغوى فقد حدث أن اجتمع فى القاهرة أعضاء المجمع اللغوى المصرى وكان عددهم يربو على المائة.. واصر أبى ألا يخدم ضيوفه على المائدة إلا أولاده وأولاده إخوته زيادة فى إكرامه لهم وقد شعر الضيوف بهذه اللفتة.. وأثرت فى مشاعرهم.. وكنا نخدم هذا العدد الضخم بسرعة ونشاط.. واهتممنا بكل ضيف على حده اهتماما بالغا.. ولكننا كنا نتكلم ونضحك مع بعضنا البعض أولاد عمى وأخى وأنا أثناء تأدية العمل.. والظاهر أن أبى نسى أننا لسنا من المحترفين فأبدى ملاحظته على صوتنا العالى وعلى ضوضائنا.. فسكتنا وأتممنا عملنا بكل هدوء.. ولما خرج هذا الجمع الخفير من حجرة المائدة جلسنا نحن أهل البيت لنتناول غداءنا.. وإذا ببعض أعضاء المجمع يقتربون منا ويقولون بلطف:

– إن عزيز أباظة صمم على ألا يخدمنا إلا أولاده وهانحن أولاء مستعدون أن نخدمكم بدورنا..

وكانت لفتة رقيقة.. ردا على لفتة كريمة.

خطف الموت أخاه عثمان ولما يبلغ الأربعين. فجزع أبي وأذهلته الصدمة ولازمته آلام الكلية شهرا بأكمله، وأخذ أولاد أخية تحت جناحه، ووجد فيه أشرف وهو ابن أخيه أبا ومعزبا يفضى إليه بذات نفسه فيجد قلبا صاغيا ومجيبا.. وعندما فكر فى الزواج أتى إلى عمه فوجد عنده الترحيب والرعاية والمساندة وكان أول سؤال سأله لابن أخيه: أهى جميلة..؟

وهذه أبيات من رثائه لأخيه عثمان منها:

أخى وابنى وأكرم أصدقائى
وأدناهم إلى نفسى مقيلا
ولدت على يدى فكيف تمضى
وأبقى بعدك الدنف الثكولا
هو القدر الذى يرمى. فلولا
يقينى. قلت: لم يهد السبيلا
سلخت صباك بين يدى وعينى
وفى حضنى درجت فتى صقيلا
إذا الآباء حملهم بنوهم
وكم زل الصبا – الشجن الدخيلا
فأقسم ما لمحت عليك عابا
وقد لابستك الزمن الطويلا

ورف لـك الشـباب فكنـت بدعـا
مــن الفتيـــان متئــدا جليـــلا
كملت فكنت أوفى النـاس صدقـا
واســـرعهم علـــى حـــق نزولا
أخـى وابنـــى وأكــرم أصدقــائى
وتـــزدان الدنـــا بـــابن صديـــق
وكنــت إذا أراك أقــول حســبى
سـناك يـرف فـى ليلـى السـحيق
وأسمع همس خطوك حين تــهفو
إلى غرفــى مــع الليـــل الغســوق
واقتبــل الصبــاح وأنــت منــح
إلى بوجـــهك الضـــاحى الطليـــق
وتحمــل عــبء أولادى وعبئـــى
فمــن لى اليـــوم بالـــبر الوثيـــق
تــأس أبــاك أشــرف وامتلثـــه
ورم قلعــات ســؤدده الســموق

وقد أتم فى القاهرة مسرحية «الناصر» وظهرت على المسرح عام ١٩٤٨ هـ «شجرة الـدر» ومثلـت عـام ١٩٥٠ و «غـروب الأندلـس» ومثلت عام ١٩٥٢ و «شهريار» ومثلت عـام ١٩٥٥.. وقـد أخرجـها جميعا الأستاذ فتوح نشـاطى مـاعدا روايـة «النـاصر» فقد أخرجـها الأستاذ زكى طليمات.

وكان الجمهور فى ذلك الوقت يحب الروايات الشعرية ويقبل عليها بل ويتجاوب معها تجاوبا يلفت النظر. غير أنه فى السنوات الماضية منذ سنة ١٩٥٥ حرم المشرفون على المسرح الناس من هذه الروايات بحجة أنها لا تصل إلى الجمهور العادى ولست أرى رأيهم.. فلو أنهم رأوا دار الأوبرا وهى تعرض على مدى شهرين أو يزيد كلا من «قيس ولبنى» و «العباسة» و «الناصر» ولو أنهم رأوا إقبال الجمهور وهو يتزايد يوما بعد يوم.. ولو أنهم سمعوا كلمة «الله» وهى تعلو استحسانا وإعجابا بالشعر، لو أنهم رأوا كل هذا لما أصدروا هذه الأحكام القاطعة. وأسوق هنا مثلا يؤيد كلامى سمعته من السيدة أمينة رزق وكتبه الأستاذ فتوح نشاطى فى كتابه «خمسون عاما فى خدمة المسرح» وهو أن الوزارة قررت أن تُحَلّ الفرقة القومية فى عام ١٩٤٦ لقلة ايراداتها، فطلب المخرج فتوح نشاطى مهلة حتى يتم إخراج «شجرة الدر» لعزيز أباظة بطولة أمينة رزق وأحمد علام، وافتتحوا بها الموسم ونجحت نجاحا باهرا وأتت بإيرادات خيالية، وعدلت الوزارة عن الحل، واستمرت الفرقة القومية.

وفى أوائل عرض مسرحية «الناصر» كتب أنيس منصور فى جريدة الأخبار نقدا عنيفا للمسرحية وهجوما شديدا على أبى، ولم يكن عادلا كل العدل وكانت أول مرة أسمع فيها اسم أنيس منصور ولم أكن أتصور حينئذ أنه يمكن لأى مخلوق أن يهاجم أبى بهذا العنف، وظللت أكرهه أعواما وأعواما، ولكن صلته توثقت بعد

ذلك بأبى وجمع بينهما ود أساسه الحب والإعجاب، وأزالت الأيام ما فى قلبى من غضب، وعرفته وعرفت زوجته، فلم أستطع إلا أن أعجب به أديبا وإنسانا.. وبزوجته صديقة من أجمل الناس خلقا وأخلاقا.

وبعد سنوات من ظهور المسرحيات جاءت الثورة ونال أبى الجائزة التقديرية عام ١٩٦٣ وخطب يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز ودافع كعادته عن لغة القرآن. اللغة التى يجتمع حولها العرب أجمع، وعرض بمن يدعون للتقليل من شأنها والتخلى عنها، وقال عنهم إنها «فئة قليلة العدد - كثيرة العدد» فثارت ثائرتهم وظهرت الجرائد والمجلات وقد أرغب وأزيدت وكانوا منتشرين فيها حينذاك.

وطالعتنا مقالات تهاجم هجوما شريفا، وبعضها أو القليل منها هاجمت هجوما مسموما وحدث يوما والحملة على أشدها أن فتحنا التليفزيون فتصدى لنا رجل يلقى زجلا كان قد فاتنا أوله، وكان ثائرا متوتر الأعصاب. فقلت لزوجى، بالحاسة السادسة - هذا الرجل يهاجم أبى، وبعد ثوان أفصح وأبان وعاب على والدى تحمسه للفصحى ووقوفه إلى جانبها وسألت إحدى المجلات مجموعة من الشعراء اليساريين عن رأيهم فى خطبة أبى والواضح طبعا أن السؤال كان لتشجيع هؤلاء الشعراء على مهاجمتها، وقد هاجموه فعلا. ولكن فى رحمة وفى حب. وطلب منى أبى أن أقرأ

عليه رأى شاعر بعينه فقرأته عليه وأحسسنا أنه كالفأر فى المصيدة، فلا هو يريد أن يتخلى عن مذهبه، ولا هو يريد أن يسىء إلى أبى، فقال أبى باسما، يكفينى هذا منه. وأخفى أبى عنا سبب سؤاله ولكننى عرفت بعد ذلك السبب وأنى اليوم لن أذكره إكراما لرغبة أبى فى أن يخفيه.

وأذكر أن أحد الصحفيين قال إن شطرة واحدة من زجل صلاح شاهين بشعر عزيز أباظة كله والشطرة هى «ملايين الشعب تدق الكعب».

شاءت الأيام أن نسكن مع أبى فى بيت واحد فى المعادى، ويكفى أن أقول إنه لم يتدخل مرة فى شئوننا، ولم يسأل من أين أو إلى أين إن لم نخبره نحن. إذا نزلنا إلى طابقه رحب بنا وسعد، وإذا لم ننزل تركنا وشأننا إلا إذا أحس أن بنا تعبا أو ضيقا.

كان بفطرته رجل بيت. يحب بيته ويقدس الأسرة يجمع شملها ما استطاع إلى ذلك سبيلا وكان له مكان خاص فى حجرته لا يغيره وبجانبه كتبه الأثيرة وخصوصا «ديوان البحترى» وإن حاولنا أن نستعيره رفض قائلا «إلا البحترى ما أعرفش أعيش من غيره». لست أنساه فى مكانه هذا إلى جانبه منضدة عليها أوراقه وأقلامه، وخلفه عمود عليه لمبة للإضاءة، وعلى الأرض وحول قدميه كتبه ومراجعه وكلب أولادى لجأ إليه وآمن عنده، وفضل الاستكانة إلى جانبه عما يلاقيه من العنف والإجهاد مع أولادى، إنها صورة

جميلة لفنان أحب طول حياته البساطة، ولم يكن فيها مكان للغرور ولا للادعاء..

وقد تأثر أبى تأثرا شديدا عندما مات هذا الكلب، ورثاه بقصيدة أهداها للفنان الكبير الأستاذ صلاح طاهر وحرمه لأنهما جزعا جزعا شديدا عندما مات كلبهما - ولأنهما مثله فى شفافية النفس ورقة القلب. وهذه بعض من أبيات القصيدة:

إنى فقدتك صاحبا بادلته الحدب النديا
ما إن خرجت سعى فلاحقنى وودعنى حفيا
وإذا رجعت هفا إلى وهز عطفيه وحيا
إن لم ألاطفك النهار حزرت ماأنحى عليا
وعلمت أنى حامل هما تواردنى فأعيا
فتدور حولى كالذى يستطلع الشجن الخفيا
وتمد رأسك فى يدى وفوك يعبث فى يديا
أنت الصديق العف لاجمح الوداد ولاتغيا
كلا ولم تعتب إذا جافاك تدليلى مليا
لم تمنح الإخلاص كالإنسان مأجورا دنيا
فاذهب كما ذهب الوفاء طواه لؤم الخلق طيا

وفى المعادى كان للبيت حديقة واسعة يدخل منها الفئران إلى داخل المنزل،وقد أقام فأر صغير فى حجرة المعيشة الخاصة بأبى وكلما حاولوا طرده هرب مسرعاً ثم يعود إلى مكانه المعهود تحت

مقعد والدى.. وكانت زوجة أبى ولا أحب أن أسميها بهذا الاسم– لأنها كانت أما لنا بحق.. كانت تنظف الغرفة قبل أن تأوى إلى فراشها حتى لا يبقى فيها أى أثر لطعام.. لييأس الفأر ويرحل. ولكن بعد دقائق يعود أبى ويضع له بعض الجبن والبسكوت شفقة ورأفه بالفأر الصغير الجوعان المذعور.

وكان فى أول إقامته معنا يفزع عندما يسمع صراخ أولادى وشجارهم ويتصور أنه قد ألم بأحدهما مكروه، ولكنه مالبث أن اعتاد ذلك، وانشغل بهم وتبنى آراءهم.. وانضم إليهم علىّ، ووجدوا هُم عنده الليونة وسعة الأفق فتحصنوا به وقاومونى بسلطانه على، كنا حوله فى المعادى، حين رمته الأقدار بما يهدد كيان كل قوى ويزلزل نفس كل ذى بأس، ولقد كان قادرا على تحمل المسئوليات ويعف عن الكلام ويسمو عن الشكوى مهما أصابه، وما أكثر ما يصيب الناس – ملأته الصدمة بالمرارة. واهتز أول الأمر، ثم واجه الواقع وحده، ومشى إليه وهو فوق السبعين يحاول أن يجد منفذا يبدأ منه المقاومة، وجد المنفذ واقترب من الحل، وساعده صديقه الكردى رضوان فى ناحية اختصاصه بكل قواه، وقاوم ونحن من حوله نفديه بأرواحنا، ولكن لا نستطيع له شيئا.. ووقفت زوجته كعادتها إلى جانبه موقفا كأعظم ما تكون المواقف، ولكن أين لهذا الإنسان المرهف أن يجد العزاء فيما أصاب آماله وأمانيه، وكان لايكاد يخرج إلا لتذليل عقبة من العقبات التى رمى بها، وكنا لا

نتركه - كنت إذا نويت الخروج وتهيأت له - ما أن أصل إلى باب الحديقة حتى أجد نفسى مرتدة على أعقابى لأكون إلى جانبه، ولكن الله رحمان.. فقد خرج من تلك الغمة ثابتا، ولكنه أعطى من عواطفه ومن ماله ما طاقة له به.

وكانت قد جمعته بمحمد طاهر أباظة صلة عمل، واتخذه سكرتيرا له عندما كان رئيس مجلس إدارة فى مطبعة مصر، واعتبره ابنا له وجاءنى محمد فى هذه الأيام العصيبه يقول ولا يحاول أن يغالب ثورته: «أنا لن أسمح لأحدكم أن يسبب كل هذا الغم لأبيه يخيل إلى أنه فى إمكانى أن أقتلكم كلما رأيته على هذا الحال. أنتم لستم جديرين بأن تكونوا أولاد عزيز أباظة» ولقد حرمتنا الأيام من هذه المشاعر الجياشة، فقد اختطف الموت محمدا ولم يتجاوز السابعة والأربعين من عمره..

وحدث أن سافر أبى إلى الخارج وقضى شهورا ثلاثة هناك، وكنا لانزال نسكن فى بيت واحد.. وطالت علينا غيبته وشعرنا بوحشة شديدة بدونه، ولما عاد وسمعنا صوته فى الصباح الباكر يتحدث مع البستانى بلهجة كلها ود وبساطة شعر زوجى ثروت أباظة بالفرحة تملأ نفسه وأرسل من تأليفه أبيات من الشعر وهى:

طربت بصوتك النادى

يرن بشارع النادى

فقـــد كنـــا علـــى شـــوق
فـــروى شـــوقنا الصـــادى

ووقعهما باسم ابننا دسوقى:

وعرف أبى طبعا أن ثروت هـو الـذى كتـب البيتـين وسـعد بـهما وقال لى:

- اوعى تفتكرى أنك بس اللى بنتى وفـى مناسبة مماثلـة أرسـل إليه ثروت هذه الأبيات من تأليفه أيضا يقول فيها:

بقربـــك تزدهـــى الدنيـــا
ويحلـــو العيـــش والأمل
منيـــع حصننـــا فيـــها
ونضـــر نبتنـــا خضـــل
فـــإن مـــالت طرائقـــها
ذكرنـــاكم فتعتـــدل

وكنا نستقبل فى حديقة المنـزل أولاد أخيه وأطفالهم وكـان يسـعد بزواره ويخرج من وحدته وينسى ما به.

وفى المعادى كتب «إشراقات السيرة الذكية» فقـد اقـترح عليـه عبد الحميد جودة السحار - رحمـه الله. أن يكتـب السـيرة النبويـة شعرا، ثم تصور سينمائيا وتغنيها أم كلثوم مـع عبـد الوهـاب فلاقـت الفكرة قبولا فى نفسه وكأنه كان ينتظر هذا الاقتراح، ولم تمض أيـام

إلا وقد نادانا لنسمع ما كتب، وأخذ يقرأ علينا، وكانت هذه عادته، ويقول لزوجي ولي ولإخوتي «أنتم جمهوري» ويأتي صديقاه أنور أحمد والدكتور الدمرداش أحمد ليسمعا معنا ما تم من السيرة النبوية، وتجمعنا الحديقة، وتمر الساعات لايكاد يشعر بمرورها أحد. وأذكر أنه عندما كان يكتب آخر أبيات في السيرة النبوية كان أولادى يديرون إسطوانة لاوبرا «لاتوسكا» وهي تغنى وتصرخ وتبكى حبيبها بالإيطالية. والموسيقى تعلو وتعلو وتصاحبها إلى أعلى الدرجات، وفى نفس الوقت كان زوجي يصرخ في أولاده أن يترفقوا بجدهم. ووسط كل هذا كان أبى يكتب بهدوء عن النبى العربى فى المدينة.. فذهبت إليه وأنا أرثى له وقلت: «كيف تكتب والحال هذه؟» فقال برقة: «لا عليك، فإنى لم أسمع من ضوضائكم شيئا»

وجاء أنور أحمد يوما لزيارة أبى كعادته، وأثناء الحديث سأله:

– أرنى ياباشا شعرك الذى لم ينشر.

– إنها قصائد كثيرة ولكنى أظن أنها لا تهم أحدا.

– كم عددها.

– لا أذكر.

– أأستطيع أن أراها؟

أتى أبى بحقيبة بها كل قصائده، فقال أنور أحمد:

– حرام ياباشا تبقى كل هذا فى الظلام.. إنه يمكن أن تطبعها فى ديوانين.

– إننى لا أرى داعيا لنشرها.

– ليس من حقك أن تحبس هذا الشعر عن الناس، ولن أخرج من هنا حتى تعدنى بنشره فى ديوان.

وأنتهى إلحاح صديقه عليه بموافقته على أن يراجع معه قصائد شعره. وجاء أنور أحمد فى اليوم التالى، وأحضر له أبى الحقيبة السوداء التى تضم الدفاتر والكراريس والأوراق التى سجل بها شعره الذى نظمه في الرثاء والغزل والإخوانيات ووصف ما رآه فى رحلاته الكثيرة وانفعلت به نفسه، وفى المناسبات الوطنية ومهرجانات الشعر العربية، وكثير من هذه القصائد لم ينشر ولم يكن فى حفل ولم تطلع عليها عين إنسان.

وقضى الصديقان يوما كاملا فى بيتنا بالمعادى يراجعان ويرتبان وينسقان، ووجدا بعض القصائد تحتوى على فراغات لم تكتمل، فوعد أبى بإكمالها، وصمم على أن يكتب له أنور أحمد مقدمة للديوان.

ولكن شاء القدر ألا يصدر الديوان فى حياة أبى، فقد اختاره الله إلى جواره قبل إتمام ما وعد به صديقه، فسلمت أنور أحمد حقيبة الشعر. فقام بإعداد الديوان للطبع وسلمه إلى حسن الزين صاحب

دار الكتاب اللبنانى التى طبعته فى مجلد واحد يضم أربعة أجزاء، مكتوبة كلها بخط اليد، على ورق فاخر، وبإخراج فنى رائع.

وكانت دار الكتاب اللبنانى هى التى طبعت قبل ذلك جميع مسرحيات أبى وديوان «أنات حائرة» فى مجلدين بعنوان «مسرح الشعر» لحساب الحكومة الليبية بتوجيه من الملك إدريس السنوسى. وكان ذلك بداية صداقة وطيدة ربطت بين أبى وبين الأستاذين حسن الزين وابن عمه محمد سعيد الزين صاحبى دار الكتاب اللبنانى وقد دعاهما أبى إلى بيته فى المعادى، كما قدمهما إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى وقع معهما عقدا لنشر مجموعة مؤلفاته الكاملة فى بضعة عشر مجلدا. وسافر أبى إلى لبنان بدعوة من دار الكتاب اللبنانى لحضور معرض الكتاب الدولى الذى نظمته الدار واشتركت فيه منظمة اليونسكو حيث ألقى قصيدة، وكان موضع حفاوة كبيرة، وتوثقت الصداقة بينه وبين شاعر لبنان الكبير سعيد عقل، الذى جاء إلى مصر بعد ذلك وألقى قصيدة رائعة فى الحفل الكبير الذى أقيم لتأبين أبى، وهى القصيدة المنشورة فى ختام هذا الكتاب.

وطوال السنوات التى أقمنا فيها معا فى المعادى كان أبى يذهب يوم الثلاثاء من كل أسبوع إلى بيت صديقه حمد الرجيب سفير الكويت فى مصر. يسهر عنده مع أقرب الأصدقاء ويستمعون إلى الموسيقى الشرقية التى يحبونها جميعا، والحق أن حمد الرجيب

ظل إلى آخر يوم من حياة أبى صديقا من أوفى الأصدقاء، وقد شاء أن يؤكد هذا الوفاء ويعلنه فألف موسيقى «قافلة النور» التى أعدها أنور أحمد للتليفزيون عن رواية أبى.

وكنت إذا دخلت معه فى سهرة عند أصدقائه رأيت العيون تتجه كلها نحوه. وكنت أرى السيدات يولونه عناية خاصة. وكان يسعد بها، ويستزيد منها بما وهبه الله من حلاوة الحديث وسماحة الوجه.

تقول صديقة لى وهى سيدة فاضلة وزوجة مثالية. تقول..

– لم أر فى حياتى أبهى من أبيك. إننى حين أراه سائرا فى شوارع الزمالك أسير خلفه ثم أذهب إلى بيتى وأقص على زوجى ما فعلت، وإذا قابلته مرة أخرى. تبعته أيضا وكررت الاعتراف..

وكنت كلما قصصت على أبى هذه القصة قال ضاحكا

– أهى دى الستات اللى بتفهم.

لم أر أبى يكتب فى حجرة خاصة أو على مكتب، وإنما كان يكتب على ركبتيه وبملابس البيت ويحب أن نكون معه، ويتدخل من آن لآخر فى حديثنا، ليشعرنا أنه يتابعنا، وأننا لانضايقه. وكان يحلو له أن يسهر معنا ويحدثنا عن ذكرياته فى مجلس النواب ١٩٣٦ عندما كان فى المعارضة ويكلمنا عن نوادر الانتخابات فى الثلاثينات. وقد روى لنا أنه لما بلغ السابعة من عمره أدخلوه كلية

فيكتوريا فى الإسكندرية مع خمسة من أبناء عمومته، وكـان الدكتـور محمود أباظة أو الذى أصبـح دكتـورا فيمـا بعـد أكـبرهم سـنا. يبلـغ العاشرة وكان يستغل فارق السن ليصادر أمـوال إخوتـه وأبـى معـهم. وكان يـأمرهم أن يقومـوا بخدمتـه وإعـداد سـجادة الصـلاة كلمـا أراد الصلاة.. وأن يرتبوا سريره بدلا منه وفـرض علـى القصـر غرامـة هى مصروف يومه، وكان المساكين يتسابقون لإرضائه ولكنـه كـان يبـدى استياءه من خدماتهم حتى تتجمع ثرواتهم الصغيرة فى حافظتـه هـو وكان أبى يرويها أمام الدكتور محمود، وكان يضحك من سذاجة أبى وزملائه.

وحكى لنا أنه عين مديرا لأول مرة فـى القليوبيـة، وذهـب إليـها حينذاك وحده. وأقام عند خالته حرم الدكتور حسين أباظـة وكـانت تقيم مع زوجها هناك، ولأنها تصغره كثيرا كـان دائـم المـزاح معـها. وفى يوم بعد عودتـه مـن المكتـب صعـد السـائق والشـاويش ليحضـرا الحقيبة فوجدا الباشا المدير يجرى حول المائدة وخالته تجـرى وراءه مهددة متوعدة، فصعق السائق. وذهل الشاويش.

وكان يحكى لنا هذه القصة ضاحكا أنـه يـوم وفـاة النحـاس باشـا وكان ذلك بعد الثورة بسنوات وكان هو فى الإسكندرية، ولم يكن فى وسعه أن يلحق بجنازة النحاس باشا فى لقـاهرة إلا إذا ركـب قطـار الصحافة الذى يقوم فى الساعة الرابعة صباحا، وليس به إلا الدرجة الثالثة، ولحق بالقطار وركب فى الدرجة لثالثة. وتعرف عليه بعض

الركاب، واخـذوا يتعجبـون.. ويتغـامزون فيمـا بينـهم، ولكنـه كـان مصمما على السير وراء النحاس باشا فـى مماتـه، ولم يكـن قـط وراء النحاس باشا فى حياته، بل إنه لم ينتسـب إلى حـزب الوفـد حـين كان طالبا وكان الوفد طوفانا..

وحكى لنا أنه كان فى باريز فـى صيـف سـنة ١٩٥١ وتلقـى مـن شامل دسوقى أباظة برقية يحدد فيها موعد وصولـه إلى بـاريز.. كـان شامل فى العشرين وحصل على بكالوريوس التجارة ويريـد الحصـول علـى الدكتـوراه مـن فرنسـا، وذهـب أبـى إلى لقائـه. لكـن الطـائرة لم تصل. وانتظر أبى طويلا لأنها كانت أول سـفرة لشـامل وأول مـرة يغادر فيها مصر، ولكنه لم يصل. فعاد أبـى إلى الفنـدق، ولمـا وصـل شامل ولم يجد أبى فى انتظاره ارتبك وأرسل برقية إلى أبى قـائلا أو صائحا باللغـة الإنجليزيـة التـى لم يكـن يعـرف غيرهـا مـن اللغـات الأجنبية «عمى أنا ضـائع» فسـارع أبـى إليـه وعـاد بـه إلى الفنـدق وأخذه معه فى حجرته..

وليزيل عنه الحرج ورهبة الغربة.. مشى معه فى شـوارع بـاريز.. واصطحبه إلى بيوت الأزياء ليريه المانيكان، وهـن رائحـات غاديـات ولكن شامل لم تعجبه باريز.. وقال إن قريته «غزالة» أجمل بكثير.. ولكنه غير رأيه بعد أن أقام بها سنوات أربع.

ومن ذكرياته التى يعـتز بـها، يـوم زارتـه أم كلثـوم وكـانت قـد فاجأته نوبة قلبية فى السودان سنة ١٩٥٨ وعاد مسرعا إلى مصر، ثم

جاءت أم كلثوم وجلست إلى جانبه تقرأ له القرآن وترقيه.. وقد وصفها فى قصيدة فى الحفل الذى أقيم لها حين عادت من أمريكا سنة ١٩٥٤ بأبيات منها:

أصغى لك الله فى علياه قارئة
فى غفوة الفجر آيات الحواميم
تتلين مبتلة الآماق خاشعة
والقلب يذرف دمعا غير مسجوم
ما أنت فى الناس روح عذبة لطفت
أذابها الله فى عليا الترانيم
ما أنت إلا اعتذار الدهر قربه
لكل عان ومظلوم ومكلوم
سمراء من قرية من كان يعرفها
فى أى ناحية أو أى إقليم
هزت ربى الشرق هزا فاستدار لها
وقال. من تلك؟ فى فخر وتعظيم
تلك التى ازدانت الدنيا بها فغدت
غنية باسمها عن كل تقديم
طماى انجبت للأجيال معجزة
عزت وطالت فكانت أم كلثوم

جاءته ابنة صديق حميم له كان قد توفى بعد فرض الحراسة عليه، وكان من أغنى أغنياء الصعيد وكان يتمتع بسلطان واسع فى مركز من أهم مراكز أسيوط. بنى هناك محكمة ومدرسة ومستشفى على حسابه الخاص إلى أن وضع تحت الحراسة وزال عنه كل شيء، واختاره الله إلى جواره جاءته ابنة هذا الرجل بعد طلاقها وطلبت منه أن يجد لها عملا، أخذها بين ذراعيه وبكى كالأطفال، وذهب معها إلى إحدى المؤسسات ولم يخرج إلا وقد ضمن لها العمل.

سافر أخوه أحمد للعلاج فى باريز.. وكان حب أبى لأخيه لا حدود له ولا نهاية.. اجتمع فيه حب الأب لابنه والأخ لأخيه، وكنت أقول له إنك تحبه أكثر من أولادك ولم يكن يدافع عن نفسه. ولما سافر كان من المتوقع أن تجرى له عملية هناك وكان أبى فى بيروت فى مهرجان شعر أقيم تأبينا لبشارة الخورى فكلمنا ليخبرنا أنه إذا تقررت العملية فسيسافر إلى باريز من هناك وعلينا أن نرسل له الملابس الشتوية، وأعتقد وهو فى هذه السن إنه فى إمكانه أن يكون رفيقا فى مستشفى. ولكن الله سلم ولم تجر العملية.

ولبنات أخويه عنده مكانة خاصة، فإذا جئنه أخذهن على ركبتيه فإذا بثلاث شابات: حورية ولبنى ونظيمة. يتنافسن على الجلوس على ركبته، وهو سعيد بذلك يجامل هذه ويداعب تلك بابتسامة حلوة وكلمات عذبة، وقد رأيته يوم خطوبة نظيمة وكانت

قد أعلنت فى بيتـه فـى المعـادى، رأيتـه واقفـا فـى الصـالون يضـع السجائر فى الأطباق الفضية بنفسه مخافة أن ننسى أو نسهو.

وقد أراد أولاد إخوته أن يجاملوه فى هذه المناسبة فأخذوا يرددون الأغنية التى قيلت لـه يـوم زواجـه الأول وهـى أغنيـة كـان يرددهـا الفلاحون فى الربعماية حينذاك يابن عمـى يـاقصب منديلـى فطـرب وهشت أساريره، وابتسمت عيناه وامتلأت بالذكريات، وأخذ يصحح لهم اللحن ويغنى معهم.

وقد زار أبى السعودية والكويـت وتونـس والمغـرب والأردن وليبيـا قبل ثورتها، وكان الملك إدريس يحبه ويقربه إليه، وأحس بـالتكريم والتقدير فى جميع البلاد العربية. فهم الغيـورون علـى لغـة القـرآن، وهـو مـن حـافظ عليـها وحمـى حمـاهـا. وهـم عـرب يقـدرون الأدب والشعر.. والأنسـاب، وكـان كلمـا سـافر فـى مؤتمـر هنـاك اسـتقبلوه بالترحاب، واستقبلوا شعره بالتقدير والإعجـاب، وكـان هـو يعجـب بالجواهرى شاعر العراق وبأبى سلمى شاعر فلسطين وبعمر أبى ريشه الشاعر السورى وبدوى جبل، وكان حينما يجتمع بصديقه عبد المنعم الرفاعى شاعر الأردن الكبير ورئيس وزرائـها السـابق يطلـب إليـه أن يسمعه بعضا من شعره فى الغزل، فيقول الرفاعى غزلا رقيقـا صادقـا نابعا من أعماق الأعماق ويهتز أبـى ويسـتزيده، وتمـر السـاعات فـى حب وشعر وغزل وقد ذهب أبى مع أخيه أحمـد وزوجتـه إلى عمـان للعزاء فى صديقهم حيدر بك شكرى، وقد رثاه أبـى بقصيـدة ألقيـت

فى ذكرى الأربعين، واستقبله أهل عمان لقاء حـرارة، وقـامت نهلـة القدسى بواجب الضيافة فى بيت أهلها هناك، وكان يناديها دائمـا. بياابنة العم.

وقد زار هناك الملك حسين ولم يتركه صديقـه الدكتـور عبـد المنعـم الرفاعى لحظة. وسهرا الليالى معا فى بيته فى عمان.

وقد قالت لى زوجة أخيه. إن أهــل الأردن قـد توافـدوا عليـه فـى الفندق وإن السيدات أقمن له ندوة نسائية وطالبنـه أن يلقـى. قصـائد من أنات حائرة فى رثاء زوجته الأولى وابنة عمه، وكانت ندوة كلـها عواطف وذكريات. كرمت السيدات فيها ضيفهن، وكرمهن هو حينما كرم المرأة فى ديوانه.

ليس من حقى أن أتجاهل الإلهام فى حياة أبى، فقد قال مرة فى حديث صحفى ردا على سؤال: إذا قلـت إنـه ليـس هنـاك ملـهم لما صدقتنى، ولما صدقنى القراء، واذا قلـت إن هنـاك ملـهما لأحرجـت بعضا من الناس والواقع أن قلبه قد ملأته أقـدس المشاعر وأسماهـا.. وتدفق الشعر من نبضاته عذبا صادقا وملتهبا، وتلاقـت روحـه بـروح ملكها الحب وفاض بها الإعجاب والتقديس، واستطاعت بمـا أغـدق الله عليها من هبات أن تملأ وعينه وحياته، فعاش أيامه آمنا أمينـا، وظلت هذه الروح تحيا فى خفقات قلبه إلى أن كف هـذا القلـب عـن الخفقان.

كيف أصبحت وماذا تفعلين
عصف البعد بقلب الغائبين
أنت فى إشراقة الفجر معى
كلما رف سناه تشرقين
فإذا الليل احتوانى ستره
فلهاب النار بى ماتشعلين
أجزع الليل وما أطوله
وأكف العبرة موصول الحنين
ساهدا والسهد روح وضنى
هل عرفت السهد؟ لا.. لا تعرفين
إنما السهد وقاك الله من وقده
من صلوات العاشقين
إنما السهد لمن غيرته
اقلقته فمضى لا يستبين
إنما السهد لمن هان على الفه
وهو سليل الكابرين
حمل الهاتف لى عنك صدى
خاضع النبرة مخمور الأنين
خلته صوتا من الخلد زكا
مثلما يزكو ابتهال المرسلين

عذلونـى فيـك جـهلا فـاغفرى
سقط الجـهل ودعـوى الجـاهلين
لج بـى حبـك فـودا طفلـة
والتظـى حبـك عنـد الأربعـين
ليسـت الزهـرة فـى برعمـها
إنمـا الزهـرة فـى يـوم تبـين
والهـلال النضـو هـل يفتننـا
فـى زهـا مولـده؟ أم بعـد حـين
لم يـزدك العمـر إلا فتنـة
كالطلا تعذب فى حضـن السنين
كيـف أصبحـت ومـاذا تفعلين
عصف البعـد بقلـب الغـائبين

كان أبى يسافر إلى أوربـا كـل عـام ولـه شـقة صغـيرة فـى لـوزان يستأجرها فى الصيف وتجملها زوجته فتبـدو أنيقـة رغـم بسـاطتها، وكان يدعونى لقضاء شهر هناك.. ولا أنـس أول سـفره لى معـه، فقـد كان يشكو من آلام روماتزمية فى كتفه وقدمه.. ولكنـه صمـم علـى أن يصحبنى إلىمتاحف لندن وباريس، وكان يجلـس هـو ويطلـب إلى أن آخذ من الوقت ما أشاء ثم أعود إليـه. وكنـا نمشـى معـا فـى شـوارع باريس ساعات مع رشدى راشد، وهو شاب يعمل ويعد للدكتوراه فى الفلسفة، وقد أحب أبى وقدره وأحبه أبى وأعجب بذكائه ومثابرته،

وعامله كأب. وكنت أدعى التعب من المشى حتى يرتاح أبى - ويجلس.. وليتأكد من أن الذنب ذنبى، وإنه هو قد فعل فوق ما يستطيع.

وهو فى السفر وبشهادة كل من صاحبه لا يفكر إلا فى أن يدخل السرور على من معه وأن يوفر لهم سبل الراحة. ولا أنساه أمام واجهات المحلات وقد لاحظ أننى أختلس النظر إليها ولا أقف أمامها مراعاة له وقف هو وقال ضاحكا: أنا أيضا أحب الوقوف أمام المحلات مادمت لن أدفع شيئا، وكان ينتهى بنا المطاف فى لوزان، وكنا نخرج معا فى الصباح، وإذا لم نخرج معا تقابلنا صدفة، فلوزان بلد صغير وإذا ذهبنا إلى «أوشى» حيث كان يصطاف محمود بك تيمور.. كان يرجع بذكرياته إلى سنة ١٩٣٧ عندما زارها مع والدتى، ويشير إلى الفندق الذى نزلا فيه معا، ويعيد على هذه الذكريات. فى كل عام.. ونحن نطوف حول هذا المكان.

كان يستيقظ من نومه فى لوزان ويصر على أن يرتب سريره بنفسه حتى لا يتعبنى، وطبعا لم يكن يرتبه وإنما كان يتركه كما هو ويغطيه بالغطاء معتقدا أنه رتبه. وكنت أقول له: أرجو يا بابا ألا تعمل شيئا طالما أنا معك.

وكان يصمم أن يصنع القهوة ويصمم أن يغسل فنجانه حتى يتعاون معنا فى الخدمة وقد أخذت له صورة فتوغرافية وهو يغسل

الفنجان، ورأتها عمته. فاستنكرت منه هذا، وثارت عليه وكادت أن تخنقنى. كل هذا وأبى غارق فى الضحك.

وأذكر أننى شعرت بوعكة خفيفة فى لوزان ووصف لى الطبيب أدوية للأعصاب. فاشترى لى أبى كمية تكفى لمدة عام بأكمله، لأن الأدوية لم تكن توجد فى مصر حينئذ، وعدنا إلى المنزل، وأخذت أنا الأدوية، وذهبت إلى الأجزخانة وبدلتها بمستحضرات تجميل لى ولصديقاتى طبعا دون علمه، وكنت قبيل عودتى إلى مصر أقول له لقد صرفت كل ما عندى وعليك أن تساعدنى فى الهدايا، ثم أخرج مع صديقتى وأظهر ما أخفيت من أموال وأشترى وأشترى.. وفجأة أراه أمامى فى الشارع وأنا لا أكاد أراه من اللفائف التى أحملها، فأقص عليه قصصا طويلة ملفقة يسمعها ولا يجيب، ولا يحرجنى ويشترى لى ما أريده، ويكتفى بأن يقول لى وهو يودعنى فى المطار: «أنت لا تكفين عن الطلبات. ولا يكفيك شىء» فآخذ يده و أقبلها، وأقبله وأرى فى عينيه التأثر، وفى ابتسامته الرضا.

كنا على صلة قوية بأسرة مصرية تقيم فى لوزان، فرضت عليها الحراسة فى مصر فذهبوا إلى هناك وبدءوا حياتهم من جديد وكان الله معهم فنجحوا نجاحا يشرف كل مصرى، لاحظ أبى أن علاقة الزوجين يشوبها فتور وصل إلى الجفاء بل إلى المقاطعة. وطلب منى أن أسألها إذا كان فى إمكانه أن يصنع شيئا من أجلها. كأن يكلم الزوج الذى يعتبره ابنا له وله عليه حق التوجيه..

والحقيقة أننى لم أجرؤ على سؤالها، فهى لم تكلمنى فى الموضوع وأنا أراها كل يوم ونخرج معا من الصباح إلى المساء - فكيف أقحم نفسى فى حياتها؟.. وكان أبى يسألنى كلما عدت من الخارج، إلى أن اقترب موعد رجوعى إلى مصر قال لى:

- هل سألتها؟

لا لم أجرؤ

- إن لم تسأليها أنت فسأسألها أنا - أنا لا أستطيع أن أرهما على هذه الحال ولا أحرك ساكنا.

- ولكنها لا تريد أن تتكلم.

- لن أترك هذا البيت ينهار أمام ناظرى ثم أنا هنا فى مكانة أبيها.

وفى اليوم التالى خرجت معها كالعادة وجمعت أطراف شجاعتى وقلت:

- إن أبى مصر أن يتدخل بينك وبين زوجك. وقد طلب منى أن أبلغك ذلك منذ يوم وصولنا فأجابت والدموع فى عينيها.

- إذن كنت تعلمين طيلة هذا الوقت.

- نعم ولم أجرؤ

-- قولى لأبيك يكفى أننى شعرت منه بحنان الأب ولهفته وأنا فى هذه الغربة، ولكنه لا يستطيع لى شيئا، فالأمر أخطر بكثير مما يبدو، ولكن أرجوك لا تخبرا أبى وأمى.

ولم يتدخل أبى بطبيعة الحال، وعدنا إلى مصر ومشاعرنا مع هذا البيت الذى أحببناه ومرت الأيام وجاءت هى إلى القاهرة، وأخبرتنا أن السعادة عادت إلى بيتها، وعاد الطائر إلى عشه، والحقيقة أنها صمدت للعاصفة بعقل وكرامة.

وكان يصلنا فى لوزان يوم ١٣ أغسطس. وهو يوم ميلاد أبى رسالة من أنور أحمد كلها حب ووفاء.. عالية الأسلوب جميلة المعانى، وكان أبى ينتظرها كل عام، ويرد بقصيدة يهديها إلى صديقه الكريم.. وكان يصله من بنات أخيه حورية ولبنى وهما من خريجات الجامعة فى هذه المناسبة رسائل تزلزل سيبويه فى قبره، ويجزع لها أبى أشد الجزع، ولا ينسى عند عودته أن يلوم لبنى على الأخطاء النحوية والهجائية. فأصبحت تبعث إليه برسائل تلغرافية كما كان يسميها عبارة عن سطرين حتى تتحاشى اللوم، وتدع سيبويه هادئا حيث هو، وآثرت حورية أن تكتب بالفرنسية رسائل طويلة مفصلة كان يقرؤها على أيام متتابعة وكانت هديتى له فى عيد ميلاده هدية رمزية، فهو لم يكن يحب أن يهدى ولا أن يهدى إلا إذا لم يكن هناك مفر من ذلك.

وكانت له فى لوزان علاقات عميقة وأصيلة، فمصطفى الزناتى قد حتمت عليه ظروفه أن يقيم فى لوزان وكان من أغنياء الأقصر، وترك بعد أن وضع تحت الحراسة كل شىء، وتوجه إلى سويسرا ونجح وأثبت أن المصرى الكفء ينجح حيثما يكون، وهو متزوج من كريمة محمود بك العتال وقد حباها الله جمال المظهر وكمال المخبر، تجمعنا حديقة بيتهم كل صيف ويشعر أبى معهم أنه فى بيت أولاده، ويشعرون هم به أبا وصديقا..

ومن معالم سويسرا بالنسبة له حسين بك أبو الفتح وحرمه. فقد أقاما فى جنيف - وكان يلتقى عندهم بأصدقاء قريبين إلى نفسه. ينسى معهم همومه وأشجانه، وكان يقضى النهار معهم إذا أراد أن يبتعد عن رتابة الحياة فى لوزان.

وأذكر ونحن فى لوزان أيضا أن ذهبنا معا إلى السينما وبعد انتهاء الفيلم أمسكت تلقائيا بمعطف أبى بكلتا يدى ووقفت خلفه لألبسه إياه.. وإذا بالنظرات تحوطنا من كل جانب وكأنى قد أخطأت عندما لم أراع بروتوكولهم وساعدت أنا أبى بدلا من أن يساعدنى هو كما هو الحال عندهم.. وقرروا بنظرة متعجبة مستهجنة أننى لا أمت للمدينة بصلة والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا أساعد أبى على ارتداء معطفه ولو كان عندى قليل من الجرأة لقلت لهم إن أغلى شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وبأمها حتى بعد زواجها. ففى الشرق يظل الأب أبا والأم أما يعيشان لأبنائهما ويحسان بمشاكلهم

ويغرقانهم فى بحر من الحنان والحب والرعاية إلى آخر لحظة فى حياتهما.. أما عندكم فالأبوة بجمالها وجلالها تنتهى عند بلوغكم سن الرشد.

وكان الشهر يمر سريعا.. وكنت أثقل عليه قبل عودتى إلى القاهرة وأصمم على أن أعود بهدايا لإخوتى وأولادى، وكان يرمينى بالأنانية وهو فى الواقع على حق. وكنت أقول له: إننى أنانية ولكن معك أنت فقط. فأنا أنتظر منك كل شىء ولا أطالب غيرك بأى شىء فكان يقول باسما لا تحملين للدنيا هما مادمت على قيد الحياة ثم يحول الجد إلى مزاح ويقول «إذا لزم الأمر أبيع هدومى عشانك ياستى» ولم يكن مزاحا ما يقول فقد كان هذا ما يشعر به، ولكنه كان يخفى بالمزاح ضعف الأب فيه.

وكنا نتبادل الرسائل بعد عودتى إلى بيتى وأولادى، وكان يعجب برسائلى ويشهد لى دائما حتى أنه تكلم مرة فى الإذاعة وقال عنى إننى أكتب أحسن من ثروت أباظة. وسألته المذيعة؟ هل هذا الكلام للنشر فقال «نعم» ثم تكلم عن أخى بما لم يرض أخى، وواضح طبعا أن حديثه فى الإذاعة حديث خفيف وليس بحثا فى الأدب، ولكن زوجى ثار. وأخى ثار. ولم أجرؤ على الشعور بالزهو بين هؤلاء الثوار.

وهذه رسالة منه سنة ١٩٦٣

عزيزتى عفاف

وصلنى خطابك فى جنيف قبل أن أقوم إلى لندن بدقائق، ولاشك أن الخطاب رقيق السياق عالى الأسلوب.. ولكنه أدهشنى وكان موشكا أن يثيرنى. فيم العتاب؟ وفيم الغضب؟ ما الذى وقع فى هذه السفرة ولم يقع فى السفرات السابقة؟ وما الجديد الذى أثار فيك الغضب فمنعك أن تكتبى متعمدة؟ أنت اعتدت تطلبى ما تريدين، وأنا اعتدت أن أجيب إذا كان فى مقدورى أن أجيب، ولقد أكون والدا غير مثالى، ولكننى على التحقيق لست والدا يشتكى منه.

أبوك

ولست أدرى ما الذى كان يمكن أن يغضبنى منه. أظن أنى اعتبرت أن سفره بدونى تقصير شديد فى الواجب المفروض على الآباء. وأضفت إلى حقوقى عليه حقا جديدا.

بابا العزيز

أنت تتهمنى بالأنانية - نعم إنى أنانية معك لأنى أشعر أنك الإنسان الوحيد الذى سيتحملنى ويحبنى كما أنا، فأولادى يحبوننى إذا أنا سامحت ولبيت وإخوتى إذا أنا جاملت واهتممت، وزوجى إذا أنا ساندت ورعيت. أما أنت فلا شروط لحبك فهو نعمة الله على، وأغلى ما أملك فى الحياة، فلا ترع إذا أنا طلبت وأخذت وأثقلت. إنه حقى عليك. اعتبره حقا مشروعا وأملى أن يبقى هذا

الحق لى دائما وأن أطالب به، فتجيب أولا تجيب. يكفى أنك هنا معنا تظللنا بعطفك وحنوك وتساندنا بجهك ووجودك.

ومنى إليه سنة ١٩٦١

أبى

إن حب الأبناء هو الأنانية بعينها، هو حب أطالبك فيه أن تحبنى وترعانى، وأطالبك فيه بأن تحمينى من الناس والأيام. هو حب أطالبك فيه بأن تشركنى فى جاهك وفى مالك، هو حب أشعر فيه أن لى عليك حقوقا أطالب بها.. فإن أعطيتها لم أشكر، وإن منعتها لم أيأس، إنه شعور جميل لا أجرؤ أن أشعر به لأحد سواك، فإن فى وجودك يا أبى حياتى، وفى قلبك أمنياتى.. وفى ابتسامتك سعادتى.. وفى جاهك عزتى واختيالى. هذا هو حبى.. فهل تقبله بصدقه وأنانيته؟

وقد أهدانى وشاحا من فراء نادر كرد على هذه الرسالة.. وإنى أتحدى توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ إذا كان لأى منهما كتاب بأكمله قد أتى لهما بما أخذته أنا من كتابة صفحة واحدة.

ومنه إلى سنة ١٩٦٥

وصلنى جوابك الجميل ولازلت أؤكد لك أنك رزقت بصياغة وإحاطة فى التعبير لم يرزقها كثيرون (وكثيرون دى يدخل تحتها ثروت).

وعلى ذكر الرسائل أذكر أننا كنا يوما عى شاطئ المنتزه بالإسكندرية وجاء أنور أحمد وقال لى وصلتنى اليوم من أبيك رسالة من لوزان وبها قصيدة.. فتعالوا إلى كابينة الدكتور الدمرداش أحمد لنسمعها معا.. والدكتور الدمرداش طبيب وأديب وذواقة، وقر علينا القصيدة، وهى عبارة عن غزل رقيق ومشاعر جياشة.. إلى أن وصلنا إلى البيت الأخير. ثارت نفسى على الرغم منى وهذه بعض أبياتها:

منذ عشرين وخمس رق يأسى واضمحلا
حين ألقيت على يأسى من عطفك ظلا
فإذا الدنيا عيون وغصون تتدلى
كان ظلما كل ذم قيل فى الدنيا وبطلا
إن أمثالك فيها حسنات تتلألأ
قلت أمثالك.. هل فى القيد أمثالك؟ كلا
لست حسنا يبهر الطرف فإن عاو ملا
إنما حسنك مما يطبى قلبا وعقلا
قد يراك الله من آلائه عزوجلا
جامعا فيك إلى الفتنة والعصمة نبلا
ولك النظرة يندى تحتها القلب ويصلى
وحديث هو أروى من طلا الخلد وأحلى
تلك عشرون وخمس هى عمرى ليس إلا

والواقع أنني ما أن سمعت البيت الأخير حتى شعرت بغصة في قلبي وثارت مشاعري. واعتبرته تعريضا بالسنوات الجميلة التي عاشها مع أمي. والتي لا تبارح مخيلته ولا تفارق وجدانه ورأيت أنه ليس من حق الوزن أو القافية أن يفرضا مثل هذا الكلام وقلت لمن حولي إن هذا البيت قد أثارني، وعاد أبي من لوزان ولم أكلمه في شأن القصيدة. كما هي عادتنا.. إلى أن قال لي يوما وأنا أساعده على ارتداء ملابسه «أنور قال لي إنك احتججت على آخر بيت في القصيدة الأخيرة «فقلت» نعم «فقال مجاملا» وهل صدقت كلام الشعراء؟!»

سافر أبي إلى الكويت فجأة، فقد كان أخر سفره مرتين ليتمكن من إلقاء كلمة استقبال زميل دراسته مصطفى بك مرعي في المجمع اللغوى ولكن الجلسة تأجلت لثالث مرة، فقرر السفر إلى الكويت بين يوم وليلة وكانت وزارة الإعلام قد دعته وتنتظر قدومه، ويسافر أبي وأرافقه إلى المطار ولأول مرة أنسى أن أكتب الورقة التي اعتدنا أن نتقاسمها قبل كل سفر.. مكتوبا عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فيذكرني بها فأكتبها، ثم يختفي من أمام ناظرى، وبعد أسبوع يأتينا خبر من وزارة الخارجية هنا أن أبي فاجأته أزمة قلبية في الكويت ودخل مستشفى المواساة.. فيجن جنوننا ونحاول أن نتصل به تليفونيا فيقال إن المكالمة لن تأتي قبل يومين فتعيينا الحيل، إلى أن كلمنا يوسف السباعي الإنسان الرقيق، الذى يفيض عذوبة..

فيقول إنه سيطلبها بنفسه وكان وزيرا للثقافة.. ثم يكلمنا بعد لحظات قائلا إن المكالمة ستأتى بعد عشر دقائق.. ولن أنس ما حييت اهتمامه بقلب اعتصرته اللهفة.. وسافرنا إلى الكويت عمى وزوجته وزوجى وأنا. وتوجهنا إلى المستشفى. واستقبلنا بابتسامة مرحبة عذبة، وكأن المرض لم ينقض على جسده.. ولم يتمكن من قلبه المرهف الرقيق.. ويقول لأخيه بصوت متهدج «ما الذى أتى بك وأنت لا تحتمل الحر» وتناوبت مع زوجة أخيه وهى ابنة عمته فى نفس الوقت. السهر عليه. كانت تمرضه بقلب يفيض بالحب وبنفس كلها قلق ولهفة، ولم تكن تغمض عينيها لحظة طوال الليل.. وكانت تقول لى: إن أباك عظيم حتى فى نومه، فهو فى أحلامه يتكلم عن الشعر والأدب والكتب.. وظلت معه تطمئنه وتخفف مما به حتى اضطرت اضطرارا للعودة إلى مصر والدموع لم تفارق عينيها، وسافر عمى وكانت ظروفه تحتم عليه أن يعود إلى القاهرة وانتزع نفسه من الكويت انتزاعا. وقد تصادف وجود محمد أباظة هناك لعمل فى الإذاعة وما أن سمع بمرض خاله حتى سارع إلى المستشفى ولم يبرحها حتى وصلنا وقد قضى معه ليلتين كاملتين هما فى الواقع أشد الليالى خطورة وقد وجد نفسه يخدم ويمرض كأحسن ما يكون التمريض وهو الذى لا يقضى لنفسه شيئا، ولكن الشدائد تطوع النفس للأمر الواقع. وقد توافد عليه أهل الكويت جميعا فزاره الحاكم وولى العهد والشيخ سعد ودعاه أن يكمل علاجه فى لندن.. غير أن حالته

الصحية لم تمكنه من ذلك.. وقد أبدى الشيخ سعد وهو وزير الداخلية والشخصية ذات المكانة الرفيعة هناك اهتماما يفوق الوصف.. وعرض أن يذهب إلى مستشفى الصباح لأن معداتها أحدث من المستشفى الذى أسعف فيها ولم تساعده حالته على التغيير.. وتقبلنا كل هذا الاهتمام بقلوب يملؤها التأثر والعرفان والشكر.. وزاره الوزراء والمذيعون الذين عرفوه من خلال أحاديثهم للإذاعة.. والذين أرهقوه باعترافهم.. من زيادة الحفاوة به، ومهما فعلنا فلن نفى أهل الكويت حقهم فقد أكرموا ضيافته واحتفوا به بدءا من الحاكم إلى أبسط فرد منهم..

وقد طوقوا أعناقنا بالجميل والاهتمام والمجاملة.

وقد أحاطنا المصريون المقيمون هناك برعاية صادقة واهتمام بالغ وانهالت علينا المكالمات التليفونية من مصر وجنيف وباريس وتوالت البرقيات من مصر والبلاد العربية، وأرسل محمود فوزى برقية رقيقة بصفته زميل دراسته وصديق شبابه، وكن الجهات الرسمية فى مصر لم تحرك ساكنا، وهذا عتاب أتحمل مسئوليته.. فهو أولا مصرى فاجأه المرض فى بلد غير بلده ثم هو ركن من أركان الأدب فى مصر والبلاد العربية، وقد احتفت به الكويت.. واهتمت به اهتماما بالغا.. ولكن بلده؟ ماذا فعلت من أجله.. لا سؤال ولا حتى برقية استفسار. أما السفير المصرى عز العرب أمين فقد اهتم بصفته الشخصية وهو إنسان رقيق الطباع استحق فعلا حب الناس وتقديرهم هناك، وكانت

الإذاعة تذيع يوميا برامج شعرية سجلت بصوت أبى أو حديثا لـه أو أسئلة وجهت إليه وهو فى المستشفى. ومما أثر فى نفس أبى وصـول ابن أخيه من باريس حيث يعد للدكتوراه.. للاطمئنان عليه.. وأشـفق أبى على ميزانيته وما تحملته فى هذه السـفرة وقـد بقـى محمـود إلى جانبه ثلاثة أيام كان فيها شعلة من النشاط والحركة.. قام بالتمريض بدلا منا نهاراً وأما الليل فكان يترك لنا المسئولية وينـام هـو كـالطفل ارهقته الحركة، وعلاقة محمود بعمه علاقة روحيـة أساسـها الحـب والإعجاب وقوامها الشعر والأدب، وهو يقول الشعر ويحفظ من شـعر عمـه الكثـير، وعـاد إلى بـاريس بعـد وداع تكشـفت فيـه العواطـف الجميلة، وبدا وكأنه الوداع الأخير.

وجاءت شقيقتى وزوجة أبى وبقينـا فـى الكويـت شـهرا بأكملـه، وظهر من رقته أكـثر ممـا نعـرف.. فـهو لا ينـام طيلـة الليـل ولكنـه لا يطلب شيئا.. ظنا منه أننا ننـام.. ولا يطلـب نـهارا حتـى لا يقلـق راحتنا وكنا ننتزع منه الطلب انتزاعا، إلى أن قلنا له إننـا لم نحضـر من القاهرة لنرتاح وإنما جئنا لنتعب ونسهر ويرتاح هو، وكنا نتناوب السهر عليه.. أختى وأنا، وكنت فـى الليلـة التـى أسـهر فيـها معـه أقول له: «اطلب من أختى أن تعود إلى القاهرة فمـا حاجتنـا إليـها؟ ألا يكفيك أنـا؟» «فيبتسـم ويوافـق علـى رأيـى.. وإذا سـهرت معـه أختى وافق على نفس الاقتراح ولكن على أن أعود أنا.. فكنت أقـول له: «إنك كالمتزوج من اثنتين.. توافـق علـى رأى كـل زوجـة نتـهدأ

أنت بالا» فكان يجيب: «إننى فى الحقيقة أريد أن تسافر إحداكما لأشعر أننى قريب العودة إلى بيتى»، وكان يقلقه المرض بعيدا عن بيته. ويخشى الموت بعيدا عن بلده. ولكن لا يقول ولا يبين.

وكنت إذا جافاه النوم ليلا. مسحت بيدى على جبينه وعلى كتفيه، وقرأت له آية الكرسى كما كنت أفعل لأولادى إذا توعكوا، وأظل أعيدها. وأخطئ أحيانا فى الشكل من كثرة التكرار. فيردنى فى رفق ويصلح الخطأ. حتى ولو كان قد أوشك على النوم، وكنت أعجب لذلك ولازلت.. وكان أحيانا يقرأ معى الآية بصوت نائم ثم يشير بيديه إعجابا بقوة الأسلوب كل هذا وهو إلى النوم أقرب.. لن أنس هذه الصورة.. لن أنساها ما حييت.

وفى المستشفى كان يسألنا كل يوم: «احنا يوم كام النهاردة؟» فنجيبه واعتقدت أن تكرار السؤال يرجع إلى أنه يريد أن يتعجل الأيام ليرى نفسه فى مصر. فى بيته. إلى أن جاء يوم ١٩ يونيو وهو يوم ذكرى وفاة أمى وسأل، وأجبنا. ولأول مرة أنسى هذه الذكرى بسبب مرض والدى ولهفتى عليه، ونام وظل يتكلم أثناء نومه.. ويسأل: هل تذكّر هذا الميعاد أحد فى مصر؟ هل زار قبرها أحد؟ وقضى ليلته يحيى هو ذاكرها، ومرت الأيام بعد ذلك ولم يسأل ولم يأبه للتاريخ. فقد كان يخشى أن تمر ذكراها.. ولا يذكرها هو، بذل الدكتور اندريه تاجر مدير المستشفى وجميع مساعديه ما فى وسعهم وهم يعلمون أن مجهودهم لن يغير من المقدر شيئا.. وظلت ابتسامتهم

مضيئة إلى أن نزلوا جميعا يودعونه يوم عودته على باب المستشفى مع شعاع الفجر.

وإذا تكلمت عن مرض أبى فى الكويت فلا أستطيع إلا أن أتكلم عن الدكتور عثمان خليل مستشار مجلس الأمة هناك.. فقد جمعته بأبى صداقة قوية نمت من كثرة ما تردد أبى على الكويت.. وكان يقصد إلى بيته بعد نهار كله مواعيد وارتباطات.. وكان يأنس إليه ويحدثه عن ذكريات شبابه.. ويتخفف مما به من حنين إلى السنين الخوالى، وقد تحمل الدكتور عثمان مسئولية كل ما يرتبط بمرض أبى.. وكان يأتى مع كبار الزوار بوصفه شخصية من الشخصيات المصرية البارزة هناك.. أو يستقبلهم فى المستشفى بوصفه قريب لأبى وصديق، وتحملت زوجته وهى ابنة عم أبى كل ما يتصل بالمرض من مسئوليات عاطفية، فكان بيتها بيته.. تشرف منه على راحته وتلبى فيه رغباته، حتى شعرت يوم وصولى إلى الكويت أننى لن أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت هى، واستمرت رعايتهم إلى اللحظة التى غادر فيها الكويت عائدا إلى مصر.

وعند وصوله إلى مطار القاهرة استقبله على باب الطائرة أخوه الأصغر ماهر أباظة، وكان قد رتب لهذه المقابلة ورافقه الدكتور عبد الله على فى سيارة المستشفى إلى منزله.. وعند صعودهما إلى الدور السابع توقف بهم المصعد. وتوقف قلب الأسرة بأكملها التى كانت فى انتظار عودته وظل المصعد فى صعود وهبوط مدة نصف

ساعة على الأقل، وهو هادئ لا يتكلم، ولكن الطبيب المرافق له لم يكف عن الصياح طالبا أنبوبة أكسجين خوفا على مريضه، وصل إلى بيته وقد أكرمه الله وأكرمنا بذلك.

فركوب الطائرة والسفر الطويل والمرض الجاثم على صدره، كل هذا قد أفقدنا الأمل في وصوله إلى فراشه سالما، ولكنه وصل واستجاب الله إلى دعواتنا. ودعونا كبار أطباء مصر جميعا.. الدكتور محمد إبراهيم - الدكتور عبد العزيز الشريف - الدكتور علي عيسى. الدكتور غليونجي. الدكتور أحمد إسماعيل. الدكتور حليم دوس.. دعوناهم وتضافرت جهودهم وتبدت عنايتهم واهتمامهم..

ونظرت حولى.. وإذا ببيته فى الزمالك ملىء بأولاد أخيه وأحفاده كل منهم يدخل إليه ويحاول أن يخفف مما به.. كل منهم يتمنى أن يسهر وأن يتعب.. ويرى فى ذلك أمرا مفروضا.. وإذا بأخيه أحمد لا يفارقه.. إلا ليسأل الأطباء عن حالته..

وكان أنور أ حمد يأتي صباحاً ومساءً. واعتبر نفسه ابنا له. وتناوب معنا ساعات التمريض.. وإذا جاء ميعاد الغذاء تولى هذه المهمة الصعبة، فقد ظل أبى طوال مدة مرضه لا يقرب الطعام ولا يقربه النوم إلا دقائق، وحاول أنور أحمد أن ينقل إليه ما يدور فى الخارج، حتى يبعده عن الملل الذى استبد به، وكان يكلمه عن المسرح وعن رواية «قيصر» التى كان مفروضا أن يمثلها المسرح القومى.

وتأثر أبى تأثرا عميقا من رعايــة صديقـه أنـور أحمـد.. فقـال لى: «الواحد يعمل لأنور تمثال من دم القلب» ولم أكـن قـد سمعـت هـذا التعبير من قبل فسألته إن كان تعبيرا معروفا فأجاب «بل انـا الـذى أقوله».

ونفذنـا العـلاج بدقـة وأشـرف الدكتـور عبـد الله وهـو ابـن أختـه على تنفيذ العلاج ولم يفارقه لحظة، وترك بيته وزوجته وأقام معـه، ورعاه بقلبه ودمه ودموعه، إلى أن فاجأنا القدر وأقـول فاجأنـا لأننـى اعتقدت أن طول المرض قد أبعد شبح الموت ولكنه فاجأنـا وكنـت إلى جانبه، ومعى عبـد الحميـد أكـبر أحفـاده، وكـان سـاهرا إلى جانبـه لم ينم.

وذهب الموت بالذى كنا نحتمل بوجوده مرارة الحياة، وحتى بعد ذهابه كان رفيقا رحيما عادلا كما عودنا، فقد تـرك لنـا رسـالة أراد أن نقرأها بعد وفاته، وتابعنا من هناك ونصحنا حتى وهو فـى أكـرم جوار، وهذه رسالته:

أحبائى

تقرءون كتابى هذا، وأنا فى أكرم جوار، وأى جوار هو أكـرم مـن جوار الله قابل التوب اللطيـف الحليـم الـذى عـزت عظـائم قدرتـه، ووسعت خلقه سوابغ رحمته، وإنكـم لتعلمـون أن المـوت وهـو الحـق الخالد، مضروب على الأحياء، وإن كل مخلوق له لخالقـه مآب وإن

لكل أجل وإن تطاول كتابا وإننى لأومن أن الفراق فيه لوعة عارمة ومشقة قاصمة فاستعينوا عليه بما تطيقونه من تماسك وتجمل وصبر.. ذلك إنه لا يجدى فى تحمله إلا التجلد والتجمل والصبر. على أننى لست ألومكم على حزن يعتصر قلوبكم. ولكننى ألومكم إذا أفسد هذا الحزن عليكم سلامة التقدير وأصالة التدبير ومنكم من تؤدى شعائر الله خاشعة فى صومها وصلاتها، فلتذكرنى مترحمة فى صلاتها، ومنكم من لا تؤديها إلا فى قلبها الطاهر.. فلتذكرنى فى مكتوم زفراتها، ومسجوم عبراتها.. ولقد أومن أن لى عليكم حق التكريم فليكن تكريمكم هذا لذكراى نابعا من موردين كريمين.. أما أولهما فتجافيكم عن الدنية فإن الدنية مخبثة موبقة للكرامة أو القيم.. وإنها لتنقصنى كما تنقصكم.. وأما ثانيهما فسد المنافذ على الخلف يدب بينكم، فإن الخلف يهوى بأصحابه إلى منهار مشنوء، وعيش موبوء، وإنه كما يسقط بمكانتكم فى دنياكم الزائلة بين الأقوياء والمخالطين فإنه كذلك يسقط بمكانتى بين من خلفت بينكم من محبين ومقدرين وحاسدين، وإننى وإن كنت لم أورثكم شيئا يذكر من عرض الدنيا فإننى، وأرجو ألا أكون مخدوعا، قد ورثتكم سيرة أستطيع أن أقرر أن المآخذ عليها ليست كثيرة، فإذا هى كثرت فإنها ليست بالغاضة ولا الكبيرة وحسبى أننى لم أشرك بالله أحدا، ولم اضر من خلقه أحدا ولم أبطن لأحد حسدا ولا لددا، على أنى مع ذلك كله بشر من البشر له أخطاؤه وأوزاره.

وبعد.. فإلى لقاء بعيد الأجل إن شاء الله.. أسعدكم الله ورحمكم الله ووفقكم لما يحبه ويرضاه، وأقبلكم جميعا، إن ترك لى حساب الرحمان الرحيم فرصة لهذا التقبيل وإذا استطاعت فتواردت إليكم قبلاتى نافذة من بين ترابى المهيل.

ولست أعلم.. ولا يعلم حتى رسل الله وأنبياؤه بما يلاقيه الإنسان وهو ابن الموت بعد الموت.. وذلك علم الله وحده أحاط به تعالى وحده. ولكن الذى أعلمه علم اليقين أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه خلق الإنسان ضعيفا، فلن يتلقاه إلا مشفقا عليه لطيفا.. ومسك الختام أن أدعو الله بدعاء رسوله محمد بن عبد الله.

«اللهم إن مغفرتك أرجى من عملى، وإن رحمتك أوسع من ذنبى، اللهم إن لم أكن أهلا لأن أنال رحمتك، فرحمتك أهل لأن تنالنى لأنها وسعت كل شىء يا أرحم الراحمين»

عزيز أباظة

مختارات من شعره

سنوات عشر

من «أنات حائرة» وبعد وفاة والدتى بعشر سنوات قال:

قالوا: لقد ضحك الحزين الأيم
الجرح يفغر فاه وهو مسمم
هل كان إلا كالخليفة كائنا
يطويه ناموس الوجود ويحكم
أخذوا بظاهر ما يرون فهل رأوا
قلبا يذوب واضلعا تتحطم؟
ومآقيا غرقى ونفسا يغتلى
فيها الضنى. ونفاثه تتضرم
مالى وللوائم أحسبى لوما
هم بين اطواء الجوانح جثم
أأثمت حين حننت بالقسم الذى
أبرمت يوم هوى القضاء المبرم
أغويت يوم هفا إلى قلبى الهوى
فصغا؟ ومن فى قلبه المتحكم
ما أهون الانسان إن وفاءة
إما اتقاء أذى. وإما مغنم

عظمــت علـــى اخلاقـــه أكلافـــه
وهــو المســير فــى الحيــاة المرغــم
نفض الـتراب الضعـف فـى أغراقـه
وابــن الــتراب الصــاغر المستســلم
آنســـته بـــالأمس يقســـم جـــاهدا
والعجـز يسـخر منـه سـرعة يقســم
ويلـى مـن الهــول الــذى يعتــادنى
كالنـــار تنشـــج والريـــاح تـــهزم
فـــإذا الوســـاد كأنــــه متضـــرم
وإذا الفـــراش كأنـــــه متذمــــــم
وإذا الكواســــر مقعيـــــات جثم
وإذا الجـــوارح صاغيـــات حـــوم
وإذا الأفـــاعى الواغـــرات كأنــــها
اصطرعـت علـى صـدرى تفـح وتـرزم
وإذا الطيــوف كأنــها مـــن عبقــر
هبطـت توهـج فـى محاجرهـا الــدم
فتقـول: قــد حنيــت علــى جــهنم
وأقــول بــل أحنــى علــى جـــهنم
وأظــل أسمــع جمجمـات عزيفـــها
وأكـاد أفــهم منـــه مــا لا يفـــهم

ياصاحب القسم العظيم تملا الكبد
العظيم وما تراخى أعظم
وأقول حسبكموا فكشر ضيغم
عن نابه حردا وتضنضى أرقم
وأقول ماجرمى على بهين
لكن بحبى لها اتقدم
فيقول قائلهم تعست ألم تزل
تتحيف الحب السنى وتظلم
ما الحب وهو تهذب الدنيابه
إلا الوفاء أو الوفاء التوأم
وأدب للمصباح أشعله فما
ألفى سوى متندم يتندم
ما كان مسرحهن إلا نفسه
وضميره المتغلغل المتبرم
اغرته سابقة الهناء فانبرى
لنديه مثلها بتوسم
يا أخت منضور الشباب تحية
مطلولة فى آهة تتضرم
معناك قبلة ناظرى أو ورده
كالبيت يأنس فى ذراه المحرم

أرنـــو إليـــك وللحيـــاة بقيـــة

تنــهل فــى خلــل الدمــوع ونسـجم

ولكم دفعت إليك صــدرى حانيـا

فــى غمــرة الوهــم الـــذى أتوهــم

وأذبـت فـى أذنيـك حبــة مــهجتى

شـعرا تفجـر فــى ملاحتــة الــدم

فـــإذا الرخـــام الجـــهم ناجيتـــه

واذا الشـــفائف مـــا اضـــم ولثـــم

ربيع العمر

يـا ربيـع العمـر مـن حـالى الصبـا
شـد مـا هـاج افتقـاديك شـجونى
يـا ربيـع العمـر مـن حـالى الصبـا
مـن علـى فرقتـك اليـوم معينـى
عـهد لا أعـرف للدنيـا سـوى
أنـها مسـرح لهـوى ومجونـى
يسـفر الصبـح فألفـاه وبى
بهجـة النفـس واشـراق الجبـين
وإذا الليـل دجـا راحيتـه
اتخطـى مـن حبيـب لخديـن
يعـرض الهـم فنجليـه كمـا
يدفـع الفجـر أهـاويل الدجـون
وكـأن العيـش يختـال بنـا
بـين أمـواه وأيـك وغصـون
زال كالرشـفة من كأس الطـلا
راويـا مـن حـر بثى وحـنينى
أين صـحبى ولـداتى ؟ عصـفت
بالأعـزين فجـاءات السـنين

واذا المـــرء مضـــت أترابـــه

ذاق أو كـــاد تبـــاريح المنـــون

ياربيعـــا لم تكـــن ميعتـــه

غـــير هفـــهاف عطـــور ولحـــون

لـــن يكـــن الخلـــد إلا صورة

مـــن ديـــابيجك أو تلـــك ظنونـــى

ياعشـــياتى التـــى أجرعـــها

سـامدا[1] أدعـــم رأســـى بيمينـــى

زاكـــى اللوعـــة محمـــوم الجـــوى

واكـــف الأدمـــع مصـــهور الأنـــين

لا تقـــولى مـــن أخـــو البـــث الذى

هاجنا.. من صـاحب اللحـن الحزيـن

النفـــــاثات نفـــــــاثاتى أنـــا

والشـــئون المســـتهلات شـــئونى

(١) حائرا

ذكريات الطفولة[1]

إنــى كلفــت بمــن أحــب صغــيرة
تــدلى بمــن تلقــى بكــامن ســــرها
جبلـت علـى حــب الإســاءة والأذى
ولطالمــا ضــج الــورى مــن جورهــا
تسـعى إلى الأوكـار إن سـكن الدجــى
وثبــا فتوقــظ ماغفــا مـــن طيرهــا
وتقـوم إن شــاب الظـــلام لروضـــة
غنـــاء باســقة تحيــط بقصرهـــا
فتــهيم بــين خضيرهــا ونضيرهــا
لتضــم ضاحكـــة بواكـــى زهرهــا
وتصـوغ ممـا تنتقيـــه - حبـيرة -
عقــدا يــرف جمالــه فــى نحرهــا
درجــت ســويعات الطفولــة حلــوة
أواه لــو رجعــت علـــى بســحرها
تركــت بقلبــى لوعـــة مـــا تمحـــى
حتــى تــوارى أعظمـــى فــى قبرهــا

---

(١) نظم أبى هذه القصيدة يتحدث فيها عن ذكرياته مع أمى ابنة عمه.

إنـى سـعدت بحبــها وقنعــت مــن
تلــك النجــوم الزاهــرات ببدرهـــا
وهويتـها أصفــى الهــوى متغاضيــا
عـن بخلـها متسامحا فـى هجرهـــا
ولكــم أداعـــها فـــأذكر جورهـــا
المــاضى فتنســب كـل ذاك لغيرهـــا
بيضــاء يســتهويك لاعــب دلهـــا
ويـــرد غيـــك رادع مـــن طـــهرها
موسـومة بالحسن يســطع وجهــها
فـى فــاحم مسترسـل مــن شــعرها
يــا نســمة الاســحار إن يممتـــها
فاســتقبلتك ببشـرها فـى خدرهـــا
فتحدثـــى عنـــى هنـــاك وقبلى
محمــر وجنتـــها ونـــاصع ثغرهـــا
قولى لهـــا مضـــناك أسهده الهـــوى
فعسى يرق على موضـــع سرها[1]

---

(١) موضع السر هو القلب.

تسبيح الذبيح لـ ١٩٥٨

ايــه يــا ضيفــة الضلــوع هنيئــا
لـك قلبـى مثـوى وصـدرى وظــهرى
فى الذراعين فى الترائب فى مجتمع
العظـــم هابطـــا تحـــت نحـــرى
لم أذلـل لـك المنـازل أنـت اخترتــها
فـــارتعى بـــها واســـتقرى
سوف نمضى معا سبيلي. سـبيل الخلق
مـــا فـــى اجتنابـــه مـــن مفـــر
وتؤمـين أنـــت غـــيرى. وغـــيرى
لتـــهضى ســـراج عمـــر فعمـــر
ياليـالى الوصـال موعـدك الحشـر
وأيـــن الوصـــال فـــى روع حشـــر
أكـــذب الله لـــو أقـــول قضـــاء الله
قابلتـــــه. بحمـــــد. وشـــــكر
لســت أسمـــو علـــى النفـــاق ولكن
مـــا نفـــاقى والله عـــالم ســـرى
رب غفرانـــك الكريـــم. ومـــاذا
أنـــت إن لم تغفـــر آثـــامى ووزرى
قـد خلقت النفوس ضعفـى وليـس
الضعـف معراجــها لفضـل وأجــر

أنـت ذو الحــول والسـنى وأنـا ذو
الضعف. أخفيـه باجـترائى وكـبرى
أنــت. مـا أنـــت لا علـم يسـموْ
لعـــوالى أسمـــاك إلا بقـــدر
أنت ما أنــت هـذه الشمس والجـواء
والأرض تحــت عرشــك تجـــرى
أنـت مـا أنـت همسة منــك تنتشـى
غيرهـا. كيـف؟ أنـت وحـدك تـدرى
لا أرانـــى ملاقيــا غـــير حســـنى
منــك مــهما أسـئ. وصفـح وغفــر
إن فـــى جـــاهك العريــض لمثلـــى
مـــن برايـــا الـــتراب ظلـــة بـــر
نحن إن لم نذنب فكيــف تلـذ العفو
تزجيـــه مغدقـــا غـــير نـــزر
يـــا بنيـــاتى أخشـــعن لأمـــر الله
واصـــبرن كـــل صـــبر بـــأجر
لم أخلـــف مـــالا لكـــن ولكـــن
رب ذخـر أسمـى مـن المـــال ذكـرى
وبحســـبى إنى عففـت فـــذاق الناس
عـــــرفى وآمـــن الناس شـــرى

مهداة إلى

أم كلثوم

أأضوى ولى من ظلك الكنف الرحب
وأظمى ولى من ثغرك المنهل العذب
أحبك ألوانا من الحب. لم تزل
تجدد. لا يهدا لظاها ولا يخبو
ترادفن فى قلبى جوى غير مقلع
وبرحا. ألا ياشد ما حمل القلب
ولى فيك اجهاش الليالى. ومدمع
إذا كف غرب منه أعقبه غرب
وجنة مشتاق إذا شط النوى
وأنات محروم. إذا جمع القرب
ومحمومة من غيره ما تدافعت
بصدرى إلا قلت: زلزلت الهضب
أثبك تحت الفجر والكون هاجر
تسابيح نفس ملء احنائها عتب
إذا كان حب الناس سهدا ولوعه
وافئدة نهفو لأفئدة تصبو

فليس الذى ألقاه فيك من الضنى
ومن حرق تفرى الضلوع. هو الحب
بلى انه التقديس قد طهر الهوى
ترف كما رف الندى المونق الرطب
قصاراك منى. والدنا فى. مدارها
تقلب حتى ما يقرلها جنب
أساكيب وجد فى الجوامح تنصب
وحز مدى بين الأضالع لا ينبو
وذمة واف. والوفاء مشقة
وما حسبى إن آدنى المرتقى الصعب
لئن لم أكن حسبا لنفسك. إننى
لا عتد نعمى العمر أنك لى حسب

المولد الشريف

اليــوم ضـــاح والنســـيم رخـــاء
وتريــق فيــض روائــها الصحـــراء
وتـبرجت تحـت الظـلال وأشـرقت
كالمحصنـــات الكعبـــة الغـــراء
وشى الجـلال جمالهـا والحسـن فى
حضــن الجــلال الفتنـــة العــذراء
وقريش حول شـيوخها وحديثـهم
نجـــوى إلى أربابـــهم ودعـــاء
ارزاء يـوم الفيــل إن عصفــت بـــهم
فلقـــد مضـــت بهوائـــها الأرزاء
وتلـوح مـن خلــل البيــوت إليــهمو
أمــة يغـــالب خطوهـــا استحياء
ودنت يشـــع على ذراعيهـــا السنى
القـــا. وتعبق حولهـــا الأرجـــاء

ومشت إلى الشيخ الجليل[1] وأومأت
للطفل وهو طهارة وسناء
هذا ابن عبد الله وابنك بعده
طابت له الأمات[2] والأباء
فتهلل الشيخ الحزين وضمه
«ياسين» من قد ضم و «الإسراء»
وضعته في أحضان يتم أمه
فاذا الأسى طاف عليه عزاء
ولدت كما تلد النساء فهن في
حمل. وفي عنت المخاض سواء
سنن الخليفة ليس في قانونها
عوج ولا في ضبطها استثناء
إن تخب نار أو تدك ركائز
فعوارض إن صحت الأنباء
ويقول جد الطفل للملأ الذى
جمعوا جموعهمو إليه وجاءوا
سموا الصبي محمدا فلعله
تسني المحامد فيه والآلاء

---

(١) عبد المطلب بن هاشم.
(٢) الأمهات.

لم يــدر أن المــهد يحمــــل مرســـلا
الأنبيـــــاء ببعثـــــه بشـــــراء
ولــد الهــــــدى فالكائنات ضـــياء
وفــــم الزمـــــان تبســـم وثنـــــاء

الرفيق الأعلى

قوى الانسان واشتد مطاه[1]
وتجلى من. سنى الله سناه
وتوالت أشهر ناعمة
طاب فيها العيش واخضرت رباه
لم يرع يثرب الا مرض
ساور المبعوث بالحق أذاه
شبت الحمى به وقدتها
فتداعت تحت مسراها قواه
فإذا أفضى إلى حاجاته
حملته فى عناء قدماه
رقرقت من حبها زهراؤه[2]
ومن العطف فانسته السقاما
ومضت تمنحه عائشة
رحمة تندى.. وأنسا.. ولزاما
ولقد قامت صلاة فهوى
بعد أن غالب حماه فقاما [3]

---

(١) مطاه: الظهر.

(٢) فاطمة الزهراء.

(٣) أى أنه قام فلم يقو فهوى صلى الله عليه وسلم.

قـال: فلينـهض أبـو بكـر بـها
فـاندبوه للمصلـين إمامـا
أتـرى هـل كـان رأيـا عـابرا
أم هـو العـهد توخـاه وراما
وأحـس المصطفـى أن الـردى
مـاثل فانـهل بشـرا. وابتسـاما
سـيلاقى وجـه مـن أرسـله
رحمـة للنـاس تسـنى وسـلاما
يـا رسـول الله أكرمـت الـورى
فـاذا الانسـان للفضـل تسـامى
وبعثـت النفـس فيـه حـرة
تنشـد الخـير وتـأبى أن تضامـا
وجعلـت العقـل فيـه مبصـرا
بعـد أن جللـه القـهر فغامـا
واقتضيت العـدل للحكـم قوامـا[1]
وبسـطت الحـق للخلـق عصامـا
ونشـرت الديـن نـورا وهـدى
يكشـف الحـيرة عنـهم والظلامـا

---

(١) النظام.

يـــا رســـول الله أبلغـــت الـــذى
شـــاءه الخـــالق للخلـــق نظامـــا
وانتـــهت منـــك إليـــهم ســـنة
كرمـــت فـــى الله بـــدءا وختامـــا
قلـت: مـن كـف الأذى عـن غـيره
أمـــن النـــار عذابـــا وغرامـــا
والـــذى يـــأثم إلا مشـــركا
واجـــد فـــى رحمـــة الله مقامـــا
والـــذى يعفـــو وإن أذنـــب لـــن
يحِـرم الخلـــد مقـــرا ومقامـــا
والـــذى يســـتر عرضـــا كـــالذى
صـبر النفـس فلـم يركـب حرامـا
والـــذى يبـــذل فـــى الله يـــدا[1]
والـذى أنعـش فـى الضيـق الكرامـا
والـــذى يدفـــع ظلمـــا. والـــذى
رد بأســـاء الأيـــامى. واليتـــامى
والـــذى يـــهدى مســـيئا فـــانثنى
عـــن أذى أوغـــل فيـــه فاســـتقاما

(١) يدا: معروفاً.

يغـــدق الله عليـــهم كـــالألى
قطعــوا العمــر. صــلاة وصيامــا
رفـــع الله إليـــه روحـــه
عــام أن ثبــت للديـــن الدعامـا
أجـــل المـــرء مقـــدور لــــه
ثـــم يمضــى. إن لله الدوامـــا
حســبه وهـــو نبـــى بشـــر
أنـــه قـــد أيقــظ الكــون. ونامــا

ومن رواية «الناصر» هذه الأبيات التى كان يحبها أبى

وكان يطلب من ثروت أن يرددها له

غـدا تــترامى شــقة البعــد بيننــا

وأى عــذاب الله أقســى مــن البعــد

غـدا تحمـل الأمـواه رحلـى مجـاهدا

فتنهل عن دمعى، وتهتاج عـن وجـدى

غدا يتنــزى القلـب كالســفن أرقلــت

علـى مـتن رجـاف مـن المـوج ممتــد

غـدا تنطـوى نفسـى علـى كـل سـاعر

دومــن عقــابيل الصبابــة والجــهد

غــدا لا يرانــى الليـــل إلا مدلهــا

قليـل قـرار الجنـب متصــل السـهد

إذا وقعــات الدهــر ابلــين جدتـــى

سلمت.. فلـن يبلـى وفـائى ولا عـهدى

مواثيـق مـن أعمـاق نفسـى قطعتـــها

وأنت ؟ فمــاذا أنـت صانعـة بعـدى؟

بغداد

قالوا بلغتم. قلت: أفق الأنجم
ومدار كل مرجب ومعظم
لم ننأ عن وطن. ولا أهل أما
جرت العروبة بيننا مجرى الدم
قالوا بدت بغداد.. قلت: تدافعت
بغداد. بين تنعم وتقدم
وجعلت أشرع ناظرىّ كأنما
أشتف أقصى طلبة المتوسم[١]
فشهدت عرق العتق كيف أمدها
عبر القرون بعزة وتكرم
قل للنواسى العظيم الملهم
وأبى معاذ. والشريف ومسلم[٢]
والطائيين الخالدين على المدى
من بليل غرد. وبحر خضرم[٣]

---

(١) الناظر.

(٢) أبو نواس وبشار والشريف الراضى ومسلم بن الوليد.

(٣) البحترى وأبو تمام.

هاتوا من السحر الحلال أزفه
لسنائها القدسي سجدة مقدمي
إني أحج لها. وبين جوانحي
شوق كأنفاس اللهيب المضرم
وهبطت في بطحائها فكأنها البطحاء[1]
تسني في جلال الموسم
وسعيت في رحباتها ودروبها
بخشوع معتمر وتقوى محرم
أمل يراوحني السنين قنصته
فلقيتها في مجدها المتنسم[2]
مزهوة الأعطاف زهو الصبح قد
أضفي سناه على الفضاء المظلم
بغداد. والدنيا الفتية كنتها
حين البلاد ولائد لم تعظم
قربت للأمم المشارع فارتوت
من فيضها المتدفق المتسجم

(١) بطحاء مكة.
(٢) العالي.

مـا بـين بصـرى. وكوفـى دعـت
أشـياخك النصحـى لنـهج أسـلم
هـذا رواق الأصمعـى ومثلـه
لأبـى عبيـدة مجلـس. والأسـلمى[1]
حجـج الزمـان معلمـو أمـم ربـا
فـى حجرهـم علـم ثـرىّ المنْجـم
العقـل قـد حررتـه ودفعتـه
فمضـى علـى غلوائـه لم يحجـم
هتك السجوف علـى الكـهوف وخاضـها
كـالهدى يقدح فـى الضـلال المعتـم
نصـب الموازيـن الدقيقـة وانـبرى
ينفـى ويثبـت بـالدليل المعلـم
بغـداد لاسمـك هـزة سـحرية
فـى كـل مصـر. للعروبـه ينتمـى
هـو عـزة العـرب الكـرام. وفخرهم
لا فـرق بـنى مزنـر ومعمـم[2]

---

(١) هو يحيى بن زياد الفراء
(٢) يقصد بذلك المسلمين والمسيحيين

إنـــى ســـألت الله جـــل جلالـــه
يحميـك مـن كيـد يحـاك مدمـدم[1]
ويقيـــك غــدر عــدوك المســـتلئم
ويقيـــك شـــر مســيطر متحكـــم
ومخــــادع ومضلـــــل ومحطم
ومذلـــــل ومقيـــــد ومكمـــــم
قـــرى علــــى كبـــد الزمـــان عزيزة
بغـداد. واعتسـفى سـبيلك واسـلمى

---

(١) مهلك

بشارة الخورى

قف فى ربا الخلد واهتف فى مقاصره
بشاعر ملأ الدنيا كشاعره[1]
سرى له أمس والأملاك تقدمه
فى موكب عامر الإشراق غامره
البحترى تهادى عن ميامنه
يختال. والمتنبى عن مياسره
يسعى أمامهما فى قدسى هالته
شوقى يزف جديدا عن معاصره
والخالدون الألى حلت ذخائرهم
صدر الوجود. فرفوا من ذخائره
تحاشدوا لأخ كانت ترانمه
قيثارة الشرق. باديه وحاضره
قالوا ظفرنا بخلاق الجمال. زكا
فى الأحرف الصم وحيا عن خواطره
بالعبقرى الملقى[2] من عباقرة
والأوحدى تعالى عن مناظره

---

(١) الأشارة للشاعر الخالد شوقى.

(٢) الملقى: الملهم.

وهشت الروضه الفيحاء ناثرة
في بهوها الزهر ترحيبا بزائره
الله دبج جنات النعيم لمن
تفيأ الخلق ظلا من مآثره
أدنى العباد له أوفاهم مددا
في فضله أو هداه أو بصائره[1]
وخيرهم. لا المصلى في مساجده
أو في كنائسه. بل في سرائره
ورادع نفسه عن شر ما ضمنت
وخلقه عن مسئ من بوادره
والدين في روحه أو في سماحته
بنوة بين إنسان وفاطره

(١) جمع بصيرة وهى العقل.

الأخطل الصغير

لم أنس آخر عهد لى بطلعته
وللردى رفرفات[1] فى مقاصره
والداء محتكم. والحول منحطم
وأول النزع يحبو صوب آخره
وحوله الله. يلقى فى عقيلته
من لطفه السمح. عذراً عن مقادره
تفيض عطفا وإيثارا وخافقها
يدوب كالكرم فى راووق[2] عاصره
فى منزل. لو ضمير الشرق أنصفه
لا عتده الشرق ركنا من شعائره
لم أنسه حين أفضينا له فمضى
يعتامنا بكليل الطرف فاتره
وقال من أنت؟ فاستعرفت[3] فالتقت
لحاظة ثم غامت فى محاجرة

---

(١) رفرف الطائر: حام وأراد أن يقع.

(٢) الراووق: المصفاة والكأس.

(٣) أستعراف الرجل: عرف نفسه إلى غيره.

وقال هل كنت من صحبي؟ فقلت أجل
كصحبة العشب الظامي لماطره
وراح صحبي وهم مثلي ذوو نسب
بفنه. وبنو موسى وسامره
فطارحوه وشاقوا من جياهره[1]
فاهتز ينثر عقدا من جواهره
وعاد كالمرح النشوان. ثم طغت
عليه وعكة ذاوي الروح حائره
مارابه الدهر إلا زاده عظما
كالطيب يزداد طيبا في مجامره
ثم افترقنا وأدرى أن نازلة
ترقى إلى عشه الحالي وطائره
ونحذر الموت. لا نألو له حذرا
والموت أقرب شئ من محاذره
ياويحها ذكريات هجن بي شجنا
تظل روحي تلظى في هواجره
فما طرقن سوى نفس وذابحها
وما تركن سوى قلب وصاهره

---

(١) الجهير والجهيرة: من معناهما الجميل الأنيق.

اعدى عدوك سن صاحبت سقما
عدا عليها بغاث من مناسره[1]
ويح اجتماعهما. والموت أكرم من
عمر رمى الدهر فيه من فواقرة[2]
لم يرحم الشعر. والدنيا تضئ به
في ذات صائغه الأعلى وخابره
أدال منه. ولكن عزه نغم
من السماء ترافت عن مزاهره
بشارة أنعم فجار الله أنت ومن
أرضى وأروح نفسا من مجاوره
قد كنت للدهر عذرا من معاذرة
بما ابتدهت وفخرا من مفاخرة
عارضتك اليوم. ابن البئر ناضبه
من مغدق زاخر الدفاع هادره[3]
وأين من جهده مستفعل فعل.
من ملهم مشرق الإبداع آسرة[4]

---

(١) المنسر. منقار الطير.

(٢) جمع فاقرة وهي الداهية.

(٣) السيل المندفع.

(٤) آسر الله الإنسان خلقه.

أضفى علـى الأدب الريـان طابعـه
فـلاح مصـدر نـور مـن مصـادره
وكـان مازفـه للنـاس رائقـة
مـن السـلافه تنـدى عفـو خـاطره
إن ثار. قلـت الرياح الهـوج عاصفة
أوقـرّ. قلـت شـكا صـب لهـاجره
منمنـم النسخ يجـرى فى ديابجـة
من كـل معنـى شفيف الـروح نـادره
يخـال مـن قربـه للنفـس إن لـه
نظـائرا. وهـو عـال عـن نظـائره
تـهفو العروبـة مـن شـتى مناكبـها
إلى الرحيـق المصفـى مـن بواهـره
فيـا لهـا نشـوة مجـت مدامتـها
أقلامـه وهـى ريـا مـن محـابره
خواطـر الخلـق تسـقيها مشـاعره
مسـتبهمات فتجلـى فـى مشـاعره
فيرسـل القـول مأنوسـا فيحسـبه
مـن صدقـه المـرء همسا مـن سـرائره
بشـارة أين: شـوقى أين؟ هـل لهما
من وارث واثب الإلهـام ظـافره

واحسـرتا زال عـن روض بلابلـه
فأوحش الروض. إلا مـن عصافره
وود كـل نضـير فيـه مؤتلـق
لو قد تجرد مـن افـواف نـاضره
بكى مع الأرز ساجى الورد وأنعطف الصف
صاف يجلـى حـلاه عـن ضفـائره
والسوسن الضاحك انغاضت بشاشته
والنرجس الفضى أغضى من نواظره
حزنـا على نـاهل منـها عواطرهـا
يديفها[1] فـى الزواكى من عواطره
فابكوا على الشعر أمسى دره بددا
وأسوا لناديـه أقـوى مـن عباقره
بشـارة القيـم العليـا يكيـد لهـا
حـران كـل قصـير البـاع قـاصره
العجـز أو شـهوة البـانى بلا أسس
أو أنه الجـدب فى أشقى مظـاهره

(١) داف : مزج.

أو ثورة في طوايا النفس حاقدة
يصلى بها كل ضحل الجهد عاقره
أو أنه قلق. والعصر مضطرب
يمضي لكل سقيط[1] السمت صاغره
فهذه ذكر في زيها خنث
وذاك يخطر أنثى في غدائره
وتلك لوحات معتل يخط بها
مالوث الطفل عن ملتاث[2] خاطره
من كل رسم جهيض[3] غير ذى شية
وكل نقش بغيض اللون نافره
وتلك قصة ذى عقل رأى سفها
أن يعرى العقل فيهاعن مآزره
يقول جددت. قل جددت فى هذر
والفج يعرف فجا فى بواكره
وزاعم إن صقل الشعر منقصة
ووزنه ناقص أركان عامره

---

(١) السقيط الأحمق
(٢) الأليتاث الأضطراب
(٣) الجهيض المولود قبل موعده

وأن علــوى موســيقاه منتـــهك
خدر العذارى الفوانــى مـن حرائـره
الشـعر مـا قلـت. لا مــا قالــه نفـر
عـدوا علـى قدسـى ماضيـه وحـاضره
ثم استطالوا على الفصحى وحرمتــها
بــآمر مـــن ذوى الضغـــن غـــائره
صـالوا مجـاهيد فـارتدوا ومـــا بلغوا
مـن فـارع الطـود إلاّ سـفح حـاجره[1]
الله كرمــــــها فاختارهــــا لفـــــه
لمعجــز محكـم التنـــزيل بـــاهره
تبقى على الدهر تسنى فـى مسـاجده
نـورا – وتنـهل هديـا عــن منـابره
لا فــن مــن غـير قيــد أو تواثبــــه
فوضــى تطيـح بمحـض مـن عنـاصره
والقيد إن كان فــى فضـل نجـوت بـه
كعفــة المـرء. قيـــد مـــن كبـــائره
يا شــاعر الشــرق فى أفياء جنتــــه
قم فاشـهد الشـرق فى غاشى مخاطره

---

(١) حاجر الجبل : قاعدته

قد بـات لا تـتراءى فـى عزائمـه
قـواه.. بـل تتجلـى فـى حنـاجره
وفـى الأهـازيج تجـدى عـن تضـافره
وفـى الهتافـات تغنـى عـن براتـره
عجبـت منـه تغاديـه توافهـه
فيسـتثار.. ويلـهو عـن مصـائره
قدمـا ريـم الأفـاعى فـى بواطنـه
خلفـا. وشـهد المداجـى فـى ظـهائره
وانقـاد للجـهل واسـتهواه باطلـه
فجـرد الفضـل عـن عليـا معـايره
متـى يفيـق؟ فمـا ذل ولا ضعـة
كهونـه وهـو مسـتخذ لواتـره
الدهـر يومـا.. والأيـام. حاملـة
حظ الوجـود جنينـا فـى سـرائره
لقـد أرى والمنـى ترضـى وإن خدعت
طغـاوة النـور تسـرى فـى ديـاجره
رحلت عنـه وعـن عصـر هـوى خلفـا
فـى عـالم فخـره كـبرى جوائـره
يـهنيك أنـك نـاج مـن براثنـه
نفسـا وأنـت نـاء عـن أظـفره

طغى الضلال به حتى لأوهمه
إن الضراوة ضرب من دساتره
الحق للباطش الأقوى وإن سفرت
نياته عن خسيس الأثم غادره
ينقض ذئبا فما خلق برادعه
ولا اجتماع على شكوى بضائره
والأمر للجاهل المثرى بعسكره
والحكم أهوج فى أيدى جبابره
وبات حكامه باسم الشعوب كمن
سام الزمان هوانا من قياصره
منهم قبيل وأن أبدى محاسنه
ففى ضمائره ما فى ضمائره
وذاك يبرم عهدا. ثم ينقضه
وذاك ينفث سما عن منابره
تخاله سائس الدنيا وقاهرها
وهو المضرس فى أنياب قاهره
يانكسة العصر لا ولا ذمم
أليس حَملانه صرعى كواسره
لم تشف نزعته السفلى حضارته
بل زاف منها شعارا فى حواضره

حـظ العروبـة فيـه حـظ ممتـهن
فـي يتمـه بـين جافيـه وزاجـره
متـى يطالعنـا عـدل الزمـان متـى؟
وللزمـان قصـاص فـي دوائـره
إن ينصـر الله طاغوتـا إذن فلقـد
اسـتغفر الله اغـرى شـر كـافره
لبنـان يـا حجـة للعـرب. دامغـة
بـهتان كـل دخيـل الحقـد واعـره
وكـل سـاع بمـا يغريـه مـن تـهم
يبثـها فـى المـدوى مـن عفـائره
إن يبتعـث فتنـة الأديـان سـقت لـه
تسـامحا فيك يسـمو عـن نظـائره
أو يذكـر الحكـم. قـد القمتـه حجرا
فشـعبك الحـر قـاض فـى مصـائره
أو يذكر الميل عـن نـهج الحضـارة لم
يعجـزك دفـع غـوى عـن بـوادره
حضـارة الشـرق تجلوهـا يمازجـها
مـارقرق الغـرب فيـها مـن بصـائره
ما بين طـوديك رفـت نهضـة عمم
أجـد شـعبك فيهـا مجـد غـابره

وعـزة الشـعب ليسـت فــى تكـاثره
العقـل أجــدى عليــه مـن تكـاثره
لبنان يا فخر هـذا الشـرق عشـت لـه
فـى ركــب حــاضره إنســان نــاظره
يا صائغ الحسـن فـى أبـهى وسـامته
ورافـع الوعــى فــى أسـنى منــائره
مـن كـل غيـداء ريـا مــن صباحتــها
وكـل يقظـان رحـب الوسـع ثـامره[1]
وبــاعث الأدب العــالى برشـح مــن
فصحــاه فــى عبقـرى مــن مــآزره
وناشـر الـروح والتـهذيب فـى لغــة
صحيحـها طـم دهـرا فـى مغـادره[2]
سـعدت. كـم لــك فــى أيــد مقبلــة
علـى القريـض أضـاءت فـى جواهـره
فصادح فى رباك الخضــــر ذو طـرف
ونائـــح يتغنــــى فى مهاجــــره

(١) ثامر الشجر: الثمر.

(٢) المغادر: الكهوف.

يقــول وهــو رغيد العيش فى بلـــد

لم تعــرف الأرض أبهى من حواضره

لبنــان أيــن عليــل مـــن نســائمه

النشوى. وأيــن حبيـب مـن دساكره

وأيـن حـور حســان مــن مــهائره[1]

تشرفن فــى حاليـات مـــن ســوامره

وأيـــن أثـــداء تفـــاح بدغدغـــها

طـل الصبـاح فـتزهو فـى تباشـره[2]

وأيــن مــاء كــراح الخلــد تسـكبه

عيونـه النجـل[3] مـن صـافى مصادره

نــأى عــن الــدار فانــهلت روائعــه

عصارة القلــب مـاجت فـى محـاجره

لبنـان.. لســت المعــزى إنــها أمــم

فى الشرق تأسى له فــى نــاى شاعره

لم يطـوه الموت. أن الموت أعجـــز من

أن يطــوى النور يســنى فى ســوائره

---

(١) جمع مهيرة وهى حسناء يغالى فى مهرها.

(٢) تباشر الصباح: أوائله

(٣) النجل: الواسعة

كم ماثل هو ميت في مقاصره
وراحل هو حي في مقابره
هذي نفاثة محزون أخي مقة
يذيبها عبرات من مشاعره[1]
بادلته الود مخضلا وكنت له
في جرحة اللطف ندى وقد ناغره[2]
والله ما روعت مصر وقد منيت
بكل خطب شديد العرك جائره
بمثل مالقيت يوم انتقالك من
هول رماها بوادى البرح ثائره
اهرامها نكست هاماتها جزعا
واجهش النيل عن مسك هامره
فاذهب كما مال قرص الشمس ضم إلى
شكران ذاكره.. إكبار شاكره

---

(١) المقصود قصائده السائرة على كل لسان.

(٢) إذا اغتلى الجرح فهو ناغر

القصائد التى قيلت فى رثائه

عزيز أباظة

شعر صالح جودت

مـا عزائـى فيـك يـا خـير عـزاء
منـذ أن غـاب أمـير الشـعراء
لم تـزل تسـعى إلى سـدته
بعـد أن عـز عليـها الأوليـاء
فتسـنمت إليـها دائبـا
صيـب الإلهـام موهـوب العطـاء
تمـلأ الدنيـا نشـيدا رائعـا
يتلقـى مـن فـم الدنيـا الثنـاء
وتصـوغ المسـرحيات التـى
لبـس المسـرح منـها الخيـلاء
وتقـص السـيرة الحسـناء فى
خـير زلفـى لأمـير الأنبيـاء
فـاض منـك الشعر، رومـى الشجى
بحـترى الـروح، شـوقى البنـاء
طـاوعتك الشـاعريات التـى
لم تطـع فـى الشـعر إلا الأمـراء

إنمــا الشــعر المصفــى دولــة
لم يــزل فيــها الســراة الكــبراء
لم تزلزلهــــا انقلابــــات ولا
هزهــا ســيف ولا شــقت دمــاء
غــير أن المحنـــة الكــبرى بــها
مــا جنــاه المحدثــون الأدعيــاء
أنكــروا الأوزان فـــى روعتـــها
والقوافـــى البلبليـــات الغنـــاء
فـــى زمـــان عـــابث يطربـــه
هـــذر المـــرد ولغـــو اللقطـــاء
سوف يبقى الشعر فى سفر العلا
ويولـــون مـــع الريـــح جفـــاء
يخلــد الشــعر علــى الدهــر كمــا
تخلــد الأديــان بعــد الأنبيــاء
انمــا يمكـــث فـــى الأرض الـــذى
ينفــع النــاس ولا يبقــى الهبــاء
يــا عزيــز الشــعر همـــى أننى
لم أشــيعك وقــد حـــم القضـــاء
جـــــاءنى ناعــيك فى مـــغترب
أتشـــهى فيه من مصـــر الـــهواء

علـــه يحمـــل مـــن أنبائـــها
نفحـــة منـــك وبشـــرى بالشـــفاء
بعـــد أن فتـــك فـــى حضـــن الضنـــى
واهـــن الشـــريان ملـــهوف الذمـــاء
فـــإذا النفحـــة شـــجو وأســـى
واذا البشـــرى حـــداد ورثـــاء
فنـــزفت الدمـــع حتـــى خـــاننى
فتســـولت دمـــوع الغربـــاء
قلـــت مـــن شـــعرك فاســـتبكيتهم
وأجـــل الشـــعر مـــا يوحـــى البكـــاء
قلـــت مـــن أنـــاتك الحـــرى على
حـــرة منـــزلها دار البقـــاء
لـــك فـــى فرقتـــها ملحمـــة
أصبحـــت ســـلوى الأيـــامى التعســـاء
هـــى لـــو تملـــك أن تســـمعها
شـــقت القـــبر وخفـــت للنـــد ء
عشـــت فـــى محنتـــها مضطرمـــا
نـــابغى الليـــل مســـود الـــرداء
ثـــم مـــر الزمـــن الآســـى علـــى
جرحـــك القاســـى فأرقـــا وأفـــاء

وتفتحــت علــى الصــوت الــذى
يوقـظ القلــب ويشــفى البرحــاء
حــين هشــت لــك أنفــاس الهوى
فتنفســـــت بـــــهن الصعـــــداء
وتعطــــــرت بنيســــــان المنى
وتقشـــبت بـــــألوان الرجـــــاء
فــــإذا ليلـــك بـــالنور اكتســى
واذا قلبــــك بـــــالحب أضـــــاء
واذا مــن كــان يغلــو فــى الأســى
هــام بــالصبوة حتـــى الغلـــواء
وبنيـــات علـــى فجـــر الصبـــا
يتــــأزرن بــــأحزان المســــاء
لم تــزل فيــهن مــن يــوم النــوى
لوعـــة اليتـــم وتذكـــار العنـــاء
قلــن مــا خطــب أبينــا بعــد مــا
غالــه فــى أمنــا عصــف القضــاء
فبكاهــــــا وبكاهــــــا ومضى
حزنـــه أمثولـــة للأوفيـــاء
فتوســــلت لهــــن ارحمننى
يابنيــــاتى، أن الحــــب داء

يابنيــــاتى مـــن ذاق الهوى
قدســيا، لم يجــد عنــه غنــاء
إن رجوتـــن لنفســى راحــة
فـالهوى والشـعر سـلوى وعــزاء
أو تمنيـــتن لى مجـــدا، فمـــا
مسـلكى للمجــد، والقلــب خــراء؟
أو تلمســـتن بعـــدى تركـــة
ليــس بعــد الشــعر عــز وثــراء
عمركـــن الله، ماشــئت الهــوى
بيمينـــى، غـــير أن الله شـــاء
يابنيـــاتى، مـــن روح الهـــوى
يولــد الشــعر ويحيــا الشــعراء
يـابنى العصـر الـذى نحيـا بـه
وهـــو علـــم وابتكـــار وذكـــاء
لا تقولـــوا شـــاعر مـــات، ومـــا
قيمة الشاعر فـى عصـر الفضـاء؟
قيمـــة الشـــاعر فـــى أمتـــه
أنـــه يفتـــح أبـــواب الســـماء
أنـــه يـــزرع ألـــوان المنى
أنـــه يبـــدع ألحـــان الغنـــاء

أنــه يجعــل للعمــر شــذى
أنــه يمنــح للــروح الضيــاء
أنـه يعــزف موسـيقى النــهى
أنــه ينشــر فــى الأرض الصفــاء
أنــه يحنــو علــى أوطانــه
أنــه يلعــن ظلــم الأشــقياء
أنــه بالشــعر يــهدى قومــه
للطريــق الحــق والــرأى الســواء
أنــه بالشــعر يــروى للــورى
ســير النصــر وأمجــاد الفــداء
أنــه التــاريخ، يبقــى صادقــا
أن روى التــاريخ زيفــا وادعــاء
أنــه الحــاضر يحيــا نابضــا
وطنــى الشــدو قومــى الدعــاء
أنــه المســتقبل الحلــو الذى
ينشــد الخــير ويدعــو للرخــاء
أنــه لــولا رســالات الهــدى
كــان فــى أمتــه كالأنبيــاء
فــى رحــاب الله مــن كنــت لــه
أقــرب الأخــدان نــهجا وانتمــاء

لم تـزل فـى نـاظرى مـن سمتـه
قامـة مرفوعـة بالكبريـاء
ومعانـاة يداريـها الرضـا
واحتمـال يتغـذى بالإبـاء
وتحـد لصـروف عاشـها
يحمـل المحنـة فـى غـير انحنـاء
فـى زمـان نحـن أحسـنا لـه
ولقينـا مـن سـنمار الجـزاء
قـلّ مـا سـر بـه، لكنـه
كـان مـا أكـثره فيمـا أسـاء
إن قضـى الأحـرار فيـه فلـهم
فـى رحـاب الله أجـر الشـهداء
يـا أبـى، بـل يـأخى، بـل يـا أنـا
أنـا مـن مـات، فللشـعر البقـاء

عزيز الشعر

شعر سعيد عقل (بيروت)

شعر ولا أنت؟.. في بردى انضنى ألم
عملاق مصر، تطلع، وانحنى هرم
راثٍ انا اليوم؟.. دعني من رثا وبكا
نار ببالى وفاء كنت اعتزم
قالوك تكمل خطا؟ ويحهم خطلوا
في غفلة الوحى، أنت الطور والكلم
الشعر بعدك صار الشعر، ردده
من رأسه فوق، من لم يفره غنم
اثنان أهواهما: نبل بشعرك لم
يتعب، ولبنان منه تتعب الأمم
سكرى بشوقي أو إلى غير ذى شيم
وقول شوقي بزحل[1] السكر والشيم
هنا الهوى شد بين الأميين، هنا
في الشرق، ما نسمت قبل الهوى نسم

---

(١) إشارة إلى قول شوقي:

أن تكرمي يا زجل شعرى أننى نكرت كل قصيدة الاك
أن الخيال بديعه وغريبه الله صاغك والزمان رواك

لكن شعرك أنت، الشعر يعبده
معى، ونغوى انا والليل والنجم
ما أمروك؟.. أخال التاج ضللهم
وجاء جبهتك الشماء يستلم
حملت غصنا من الأرز، استظل به
أو رعمسيس أو الوقاد من عظموا
أو من نماهم ثرى لبنان، مبتدع
البداع: من نثروا الدنيا ومن نظموا
به ألف جبينا لا الشموخ حكى
أغلى، ولا العود وفاه ولا النغم
طوقت جيدى بأنى «عقل أمتنا»
يعل من سحرى «الإثبات والهيد»
كلامك السيف، ها بالسيف ترسله،
والاصطكاك سكوت عنده القلم
بديع رصفك، فيه أنت: قامتك
الغيناء، صدرك، صدق العزمة: الشمم
وفيه من أسرة قلت الرماح نمت
قوما، وقلت بخيل طارت الهمم
مصر تنشئ. ما القوقاز أنبته
منها الحضارة، منه النبلة الحكم

ما الشطر مـن بيتـك الـلآن غير صـدى
لكـــرة عبرهـــا الأعـــداء تنـــهزم
حتـــى اذا رد شــــطر آخـــر لعـــت
أهزوجة النصر يغـوى فوقـها العلـم
أمـا القصيـدة، ممـا رحـت تعمـــره،
فالــبرج مـاد كمـــن بـــالأفق يصـدم
يقـــول إن ابتـــهالا ســـر فتنتـــه
وأن دفـا علـى بـــاب الســما الحكــم
غنيت لبنى، البنى غير مـن هجرت
لتسـكن الدمع فـى عينيـك ينسجم؟
لنجمـة الصبـح ودت لـو تكـون لهـــا
بديلـــة وعليـــها الشــــعر ينــــهدم
واريتها لا بترب، بـل بـورد ضحـى
والحـــب حبـك ورد بالشـذا بـــرم
وفجر الدمع فيك النبـع مصـر، ردى
نيـلا مـن الشـعر يـانيلا هـو الكـــرم
بمصــــر حببــت الدنيــا فكيـــف اذا
راحت على الريشـة الخضـراء تضطـرم؟
أقـول: كتـب إلى نجـم تشــد فطــر،
حدوث، والعب كمـا لم يلعـب القدم

عملاق مصر، قوافيك الكبار بنا،
بنبلـــها مـــايزال الأرز يتســـم
ومن أنا لأرد اليوم بعض ندى؟
صم قوافــى فــى رد النــدى بكــم
إن شاعر هام بالنيل انتشت قمم.
فـى أرضنـا، أو تصبـى مـادت القمـم
مصر هى المجد، كان المجد مذ طفرت
فى البـال، فالكون أذن بعدها وفم
أو لو النهى الصيد نادتهم هياكلها
وعلمـها رفـد الصيـد الأولى علمـوا
غاو بها شرف الانسان، ما خذلت
عصرا، وغاو بـها ذو الريشة العرم
أن ضامها الضيم مس الخالقين دنى
أو نالهــا الظلــم راح الحــق يظلـــم
لبنان نحن.. وها نحن الشهود لها
نديـن يـوم انتصـاف، ليـس نتـهم
الحب نحن شرعنا الحسن نحن بدعنا
البعـض نحـن قطعنـا أنـه العـدم
جبيل قالت بقاء النفس واكتشفت
ربـا أبـى لقضـاء السـيف يحتكـم

الليـل لـولا سـراها غربـة قتلـت
والشمس لولا هواها وهـى مـن وهمـوا!
بلى، جراحات مصر فى مضاجعنـا،
فى الروح يسخى بها، فى العظم ينثلم
فى الريح فى غضبات الغيظ، فى غدنـا
فى مبتغى ما ابتغى الأبطال إن هجموا
ما لم تـزن مصـر وزن الحـق يبـق دم
علـى الضمـير ويبقـى أن يـراق دم!
أطللت منك على التـاريخ، رنحنـى،
همى كما الضوء فى بالى، كمـا الديـم
.ويعطـر البـال أن يمسـك عطـر يد
مسـت بنفسـجة أنفاسـها حـرم
لم لا؟ وفى القصص العـالى الـذى نسجت
غزارتـاك استجدت سحرها النظـم
غدا الهوى بدعـة، مـرا ببـال هـوى
وسكر عقل علـى القرطـاس يرتسم،
وآيــه طرفــت حتــى ليرشــقها
غيـان إن أنـا ضليـل ولى جـرم
بالكأس أفديك، بالدنيـا، بساجعة،
بلـوز نيسـان للزينـات يبتسـم،

بالشعر بالمنتهى بالمجد أشعلني
بحط عيني بعين الحق ألتهم
حتى إذا لاح لى أني وهمت همت
مني الشجون كمن أفلاكها السدم
رفيق شطرة عمر، ذاكر ولها
بشعر مطران والألباب تحتدم
اسمعتك المرتجى. ما كان؟.. دع خلقى
للصمت، لا شرف إلاك، لا ذمم!
مازلت منها كما بوح النسيم لمن
من النسيمات تشقى وهى لا علم:
مرى بدارتنا يا طفل وانحطم
على بساط من النسرين ينحطم
بهديك الريح تنأى، أنت مرتحل!
بقدك الشوك يدمى، أنت منتقم!
إن كان بالهزج من صبحيك لا أمل
فعند خَصرك لم لا يصدق الحلم
حتى إذا ينهدرى شعر وكنت غوى
تململين، وآه القول والقسم
تهم شمس بأن تغشى فأمنعها:
ضيعى معى، ياضياعى، وأحل، يا نـم

وتسألين: لمن سهدى، بمن وجهى؟
ياقاطف الشمس، أكمل أو أنا الرمم!
وننتهى ننتهى فى قبلة ولهت
وفوق يغمز فينا بلبل رنم
شئ عن الشعر هذا، استله كلف
بالشعر، أم سكر صب ليس يحتشم؟
فلنبقه بيننا سر الكئوس، بها
يمر هاو فيدرى أنه الجمم
عملاق مصر، إذا أعوزت فى خلد
فضم من خلدنا ما شاءت الضمم
من زهر لبنان خذ عرشا ومن قيم
لا زهر لبنان منان ولا القيم!

فى رثاء عزيز الشعر

شعر: عبد الكريم الكرمى
(أبو سلمى) فلسطين

وحملنـا مـن فلسـطين الجراحـا
ألسـنا فـى المـهرجانات فصاحـا
وشـطايانا اللواتـى انتـثرت
قـد عصبناهـا وشـاحا فوشـاحا
جلـت الثـورة أيـام اللقـا
جبـهات، تفضـح الشمس، صباحـا
وغـدت أشـعارنا صامتـة
أنـها فـى صمتـها أمضـى سلاحا
يـا فلسـطين أتينـاك علـى
صـهوة الجـرح، رعـودا ورياحـا
تقـف السـمراء فـى سـاح الوغـى
تتحـدى الأسمـر النـدب كفاحـا
حسـبوا أن رمـاحى انكسـرت
إن لى فـى كـل ميـدان رماحـا
كلمـا حطـم لى الدهـر جناحـا
مصـر مـدت لى علـى الأفـق جناحـا

شـيع الشـعر عزيـزا وبكـى
خلقـا فيـه ونبـلا وسماحـا
لا عـروس النيـل فـى موكبـها
لا ولا موكبـها زف الملاحـا
لا الليـالى خافقـات بالسـنى
لا ولا النجم علـى المـوج استراحا
لا الريـاحين علـى الشـط زهت
لا ولا الـورد بسـر العطـر باحـا
وانثنـى الفـارس عـن رايتـه
وارتمـت تمـلأ دنياهـا نواحـا
يـا عزيـز الشعر مـن بعـد النـوى
لم نجـد للشـعر فرسـانا وسـاحا
الحـروف العربيـات انطـوت
والهجينـات تصـدرن المراحـا
هـانت الأنفـس فالشـعر غدا
مرتعـا – مثـل بـلادى – مسـتباحا
أرضنـا أرضـك يـا مصـر وقـد
بسطت فـوق ظـلال الخلـد راحـا
ونسـيمات الربـى مـا اختلفـت
والنمـير العـذب مـازال قراحـا

وغرسنا الشوق في كل ثرى
ورعيناه غدوا ورواحا
وسقيناه معا، من دمعنا
وغذوناه إباء وطماحا
وحد التاريخ فيما بيننا
والدم الحر الذى روى البطاحا
فتراب ومصير واحد
أين من يقطع أوشاجا صحاحا
كل يوم قطعة من كبدى
تتشظى وبها الموت أطاحا
لى في كل المناحات أخ
لم يجد قبرا ولم يلق أقاحا
وهوى السيف المدمى عاريا
دون غمد، والردى رد الجماحا
لم تشيعه بقايا أدمعى
لا ولا توديعه كان متاحا
والرفات المستجيرات ألم
تسمعوا منها عويلا وصياحا
شهداء قد كساهم ربهم
نضروا روحا وردنا وصباحا

وهم في كل درب شعل
أطلعت من ظلم الليل صباحا
ظل لمن أعفوا على الذل الا
بئس من كان عن العز أشاحا
باسم شعبي حكموا لكنهم
ظلموه ثم يرجون فلاحا
تاجروا باسمي وبؤسي ودمي
ثم باعوا وطني بيعا سماحا
أيها اللاهون بالميسر
لا تجعلوا أرض فلسطين قداحا
ذرة من وطني فيها الدنى
أين من يبغي بديلا أو براحا
أي فك لبني العرب إذا
لم يفكوا من فلسطين السراحا
أيها الحر الذي فارقنا
أنّ للقيد على الأرض اجتياحا
أيها الصداح ما الروض إذا
كنت لا تملأ جنبيه صداحا
أيها الشاعر ما الحفل إذا
كنت لا تسقيه من شعرك راحا

لا يضـئ النـــور فـــى الجمـــع إذا
لم يكـن منـك الجبـين الطلــق لاحـــا
مثـــل زيتـــون بـــلادى، خـــالد
شـعرك الغـض اخضـــرارا واتشـاحا
يـــا عزيـــز الشـــعر مازلنـــا علـــى
عـــهده، نعتنـــق الـــود الصراحـــا
اينمـــا ســـرنا، علـــى أعطافنـــا
عبـــق مـــن شـــعرك المعطـــار فاحـــا
أنـــت دافعـــت عـــن الحـــرف فلـــم
يـــهو فـى الوحـل ولم يولـــد ســفاحا

إلى عزيز أباظة

شعر: محمد التهامى

نـــام العزيـــز ولم ينـــم ســـلطانه
بـــل راح يســـتبق الحيـــاة بيانـــه
والشـــاعر الخـــلاق يغـــرس عمره
فيطـــول فـــوق ذرا الوجـــود زمانـــه
تتواكـــب الأجيـــال دائبـــة الخطـــا
وتظـــل فـــوق رءوســـهم أوزانـــه
يتفيـــأون مـــن الهجـــير ظلالهـــا
وتضمـــهم زمـــن الربيـــع جنانـــه
وإذا اســـتباح الزمـــهرير حياتـــهم
فمـــلاذ دفئـــهم الرحيـــب حنانـــه
وعلـــى دروب الحـــب يلمـــع صوتـــه
فتضـــىء فـــى ليـــل الهـــوى الحانـــه
وإذا جـــراح العاشـــقين تنـــاوحت
واســـى جـــراح قلوبـــهم تحنانـــه
وإذا تفـــرق شملـــهم وتنـــاثروا
ضمـــت شـــتات جموعـــهم أحضانـــه
وإذا اســـتطال الليل فـــوق ربوعهـــم
يدعـــو إلى الفجـــر القـــريب أذانه

وإذا تـــهاوى للضـــلال فؤادهـــم
يـــهدى إلى رحمانـــهم ايمانـــه
وإذا تنكبـــت الطريـــق جموعـــهم
يومـــى إلى النـــهج القويـــم بنانـــه
وإذا دهـــى الأوطـــان كيـــد عداتـــه
عـــزت بظـــل نشـــيده أوطانـــه
وإذا اســـتنام الغـــافلون لظـــالم
لذعـــت مضـــاجع نومـــهم نيرانـــه
وإذا وحـــوش الغـــاب ســـيطر حكمـــهم
غلـــب الوحـــوش وردهـــا انســـانه
هـــذا تـــراث الخـــالدين وبينـــهم
يـــأتى العزيـــز ويســـتقر مكانـــه
لم يعـــرف القـــول الجـــزاف بـــل انتقى
فأضـــاء فـــى صـــدق الشـــعور جمانـــه
وأقـــام فـــى حلـــو الحيـــاة ومرهـــا
مـــا اهـــتز فـــى وهـــج الصـــراع كيانـــه
زادتـــه فـــى الأقبـــال حلـــو تواضـــع
حـــين اكتـــوى بغـــرورهـــم أقرانـــه
ورأتـــه عنـــد البـــأس أكـــرم فـــارس
يضـــوى بليـــل الحادثـــات ســـنانه

ويقــول مــا يلقــى بقــدرة ملــهم
مــا خــان أعمــاق الشـعور لســانه
فـــى حبــه ووفائــــه أســــطورة
نطقــت بصــدق حروفــها أشــجانه
وأدارهـــا ســـفرا يصـــوغ مـــداده
قلــب الحبيــب تذيبــه أحزانــه
أناتـــه الحـــرى ســـقت أكبادنـــا
جمـــرا عليـــه شـــواظه ودخانـــه
واشــتد مصقــول المشــاعر قـــادرا
يجــرى وراء غبـــاره اخوانــــه
فلـــه بدنيـــا الشـــاعرين صـــدارة
ووراء طلعتـــه مشـــت فرســـانه
يرتـــاد آفـــاق البيـــان مظفرا
فيـــه فكـــل فنونـــه ميدانــــه
يلقـى كريـم القــول فــى ميزانــه
فـيزيد فـــى وزن العـــلا ميزانــه
قـد روض الفصحـى وأحســن صوغــها
فأضــاف فــى أمجادهـــا احســانه
وأتـــاح للشـــعر الأصيـــل مكانـــة
عليــا رســت بســمائها أركانـــه

فـــالمحتوى فيـــه النبـــوغ أصالـــة
وعلـــى مفاتنـــه اســـتوى بنيانـــه
وسرى الشـعور الحـــى فـــى أنفاسـه
نغمـــا يـــهز المنتـــدى فتانـــه
والشـــاعر الفنـــان فـــى أعماقـــه
ســـر الوجـود وفـــى يديـــه عنانـــه
أوتـــى مـــن الالهـــام قـــدرة شـــاعر
يســـع الوجـــود ومـــن بـــه وجدانـــه
فـــيرى بعـــين الملـــهمين حقائقـــا
خفيـــت وتســـمع صمتنـــا آذانـــه
ويحـــس فـــوق الحـــس ثـــم يـــرده
شـــعرا يســـير بســـحره ديوانـــه
يسقى مـن السـحر الحـلال نفوسـنا
ولـــو أنـــه أوحـــى بـــه شـــيطانه
فنـــهيم نذعـــن للـــذى يوحـــى بـــه
ويظـــل يســـعد قلبنـــا اذعانـــه
هـــذا دعـــاء الفـــن عـــز نداؤه
هـــذى قيادتـــه وذا ســـلطانه
إن كـــان للشـــعب العريـــق حضـــارة
كتـــب الحضـــارة كلـــها فنانـــه

عزيز العرب

شعر: مبارك المغربى
(السودان)

لـك منـى علـى المـدى أعظـامى
يـا مقيمـا بقلبـى المسـتهام
يا مطيل الغياب فى العالم الرحب
بعيـدا عـن عـالم الأوهـام
لـك منـى ذمـاء نفسـى يـا خلـى..
وقلـب قـد صـار بعـض حطـام
لم تـزل روحـك الزكيـة تـهدى
بلجـة الوحـى للنفـوس الظوامـى
لم يـزل طيفـها يطـل علينـا
كـل حـين.. فـى رقـة الانسـام
عبـق كالصبـا يضـوع شـذيا
كنت فينا أو صرت بين الرغام
لهـف نفسـى. أمـا أودع خلـى
ونجيـى.. ومـا أبـل أوامـى؟
غائب مالـه الغـداة رجـوع
تاركا صـحبه لـذل المقـام

لزمــان مــدى الحيــاة عبوس
وقلـوب علــى الـدوام دوامــى
أى رزء أشــد مــن ذلــك الــرزء
وأقســى مــن تلكــم الآلام!
ايــه يــا مصــر: يــا مــراح خيــالى
ورؤى خــاطرى وملقــى غر مــى
كيـف أغــدو علــى ثــراك غريبــا
بــين أهلــى ومجتلــى احلامــى
كنـت ألقـاك مسعد الـروح والقلــب..
فمــالى ألقــاك دون ســلام؟
وجـهك النضر! مالــه حـال جــهما
بعـد مـا كـان مشـرق الابتسـام؟
هدنـا الحــزن مـذ فقدنــا «عزيــزا»
فــى كثــير مــن المعــانى الفخــام
فى الندى فى النقاء. فى البر بـالصحب.
وفــى خلقــه النبيــل الســامى
فــى سمـاء الخيــال فــى الأب الفــذ..
وفــى موكــب العــلا والتســامى
عبقــرى زهــا بمذهبــه الشـــعر
ونـــادى لـــه بلا احجـــــام

صانـــــه مـــــن أذى الجديـــــد

زاهــرا خـــالدا علـــى الأعــوام

لــن يضـير النظيـــم محــض كــلام

قـــد أتـــى مبــهما بغـــير نظـــام

أيـــــهذا الــــذى تـــولى كريمـــا

مسـرعا فـــى خطــاه دون زحـــام

أيــن ألقــاك كـــى أبثـــك مـــاعندى..

وأشـــكو إليـــك حــــر هيـــامى

ســوف ألقــاك فــى محيــا «عزيــز»

صورة منـك فـى الشباب النـامى[1]

يـا شـقيق الفـؤاد.. يـا تـوأم الـــروح..

ويـــا ذاهبـــا بـــأقصى مرامـــى

أنـا مـا عشـت أذكـر الخـير والفضل

وفيـــض الشـــعور والإكـــــرام

لم تزل تزدهــــــى «عصـــــارة قلبى»

بعد ما زنتهـــــا بأغلى وســـــام[2]

---

(١) عزيز الاسم الذى أطلقه الشاعر على ابنه وفاء للفقيد العزيز.

(٢) عصارة القلب: ديوان الشاعر الذى تفضل الفقيد بتقديمه عام ١٩٥٤.

الأمــس مضــى «بتوتــى» «وبــرى»
بـين نفـح الربـى وهمـس الغمــام[1]
وليـــــال كأنـــــــها أرج الخلد
تجلــت فـــى المقـــرن البســـام
طالعتنا «الخرطـوم» مـن وحيـك الـثر
بســـحر يفــوق ســحر المـــدام[2]
كــم لقــاء لنــا علـــى ضفـــة النيـــل
وشـــط «الجزيـــرة» المـــترامى[3]
بـين صحـب شـجتهم نـدوة الشـعر
فصـــاغوا شـــوارد الأنعـــام[4]
ذكريـــات تعيــش فـــى القلــب رمــزا
لصـــلات تبقـــى مـــدى الأيـــام
يا رسول القريض - يــا شاعر العـرب
وحـــادى البيــــان والالهـــام

---

(١) تربى وبرى والمقرن: أماكن معروفة فى ضواحــى الخرطـوم وبـها كـرم الشـاعر صديقه عند زيارته الأولى للسودان عام ١٩٥٥.

(٢) الخرطوم: القصــيدة التـى حيـا بـها الفقيـد السـودان فـى زورتـه الثانيـة عام ١٩٥٧.

(٣) الجزيرة الموقع المعروف بالقاهرة وبها دار الفقيد بالزمالك.

(٤) اشارة للندوة الكبيرة التى أقامها الفقيد للشاعر عام ١٩٥٤ ودعا اليها أساطين الأدب فى مصر.

ياسـليل الوفــاء يــا عــترة النبل
وصنــو الحجــى ونســل الكــرام
ليتـــك اليـــوم بيننـــا تتملى
فــى صمــود الرجــال والاقـــدام
لـترى العرب فــى مصافحــة المجـد
خفاقـــا وفـــى نـــداء الوئـــام
لـــترى النيـــل نضّـــر الله واديـــه
طروبـــا يتيـــه بـــين الأنـــام
فالشـــقيقان بعـــد طـــول التيـــاع
واشـــتياق.. تعانقـــا فـــى التئـــام
ذاك يـــا صـــاح مـــا دعـــوت إليـــه
فاســتجابت لـــه عـــرى الأرحـــام
إنمـــا نحـــن كلمـــا جـــد جد
لترانـــا أوفـــى الـــورى بالذمـــام
نحن رمز النضـال فى الموقـف الضنك
وفـى غمـــرة الخطـــوب الجســـام
يـــا أخـــا الـــود والمـــروءة والبذل
ســـقى قـــبرك الغمـــام الهـــامى
نم هنيئـا فقـد غرســـت ثمـــار المجد
والمجـــد غـــرس كـــل همـــام

لم يغب من أعاد للضاد ما ضيها

وللعرب عزة الاسلام

من قضى العمر فى اللجوء الى الله

بأعماله الكبار العظام

رب هبه الرضا وأغدق عليه

فضلك الجم فى أبر مقام

وسلام عليه فى جنة الخلد

حليف الهناء والإنعام



أبى وأنا وابنتى أمينة فى المعادى عام ١٩٦٨



أبي والأستاذ توفيق الحكيم والدكتورة بنت الشاطيء



أبي يستضيف فى بيته ملك ليبيا وزوجته بعد ثورة ليبيا



أبي يستضيف الأمير عبد الله الفيصل فى جدة

فهرس

- أبى عزيز أباظة ٥
- مختارات من شعره: ١٠٧
  - سنوات عشر ١٠٧
  - ربيع العمر ١١١
  - ذكريات الطفولة ١١٣
  - تسبيح الذبيح (١٩٥٨) ١١٥
  - مهداه إلى أم كلثوم ١١٧
  - المولد الشريف ١١٩
  - الرفيق الأعلى ١٢٢
  - من رواية الناصر ١٢٦
  - بغداد ١٢٧
  - بشارة الخورى ١٣١
  - الأخطل الصغير ١٣٣
- القصائد التى قيلت فى رثائه ١٤٦
- لقاطات من حياة عزيز أباظة ١٧٥

العدد القادم

الدين والحضارة

دكتور محمود حمدى زقزوق

رقم الإيداع	١٩٩٨/٧٨٤٤
الترقيم الدولى	977-02-5583-1 ISBN

١/٩٨/٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)